الهدى

فكرية إسلامية جامعة

العدد 25 | ذو القعدة 1412 هـ / ماي 1992 | الثمن 8 دراهم

- القرآن الكريم، طبيعته ووظيفته

د. الشاهد البوشيخي

- اعادة ترتيب العقل المسلم

د. عمر عبيد حسنة

- التصور الإسلامي للإنسان كأساس لفلسفة الإسلام التربوية

د. جعفر شيخ ادريس

- الأمة وقضية التقنية (2)

د. توفيق بن احمد القصير

- منبر الجمعة :

المحن وأثرها في تربية الرجال

د. محمد ابياط

- رسائل جامعية

التناسب في القرآن الكريم

د. أحمد ابو زيد

- حقيقة الانتصار

د. ناصر بن سليمان العمر

أليس منكم رجل رشيد ؟!

الهدى

بسم الله الرحمان الرحيم
"ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل إن هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت اهواءهم بعد الذي جاءك من العلم مالك من الله من ولي ولا نصير"
سورة البقرة

المحتويات

الاشتراكات

عن أربعة أعداد

. في دول المغرب العربي:
- العادي : 30 درهما
- المؤسسات : 50 درهما
- التشجيعي : 100 درهم

. في الأقطار الأخرى :
- العادي : 10 دولار أمريكي
- التشجيعي: 20 دولارا أمريكيا

يرسل الاشتراك باسم مدير المجلة
على شكل حوالة بريدية
أو على الحساب البريدي
P 67 - 22 - الرباط.

الهدى

مجلة
إسلامية جامعة تصدرها جمعية
جماعة الدعوة الإسلامية بفاس

المدير المسؤول : المفضل فلواتي
رئيس التحرير : محمد بريش
العنوان : حي عز الله - زنقة 2
رقم 1 - شارع الوحدين - فاس

العدد الخامس والعشرون

ذو القعدة 1412 هـ 1992 م

الثمن 8 دراهم

رقم الإيداع القانوني 82/26

مطبعة فضالة - المحمدية

ما ينشر في المجلة يعبر
عن رأي كاتبه
المقالات التي لم تنشر لا ترد

كلمة

تحاول المجلة تلبية بعض رغبات القراء على الرغم من الظروف المادية القاسية التي تعاني منها ...

وها هو العدد الخامس والعشرون يضع بين يديك عصارة فكرية لفئة من الأساتذة الأجلاء في موضوعات مختلفة من حيث اسلوب التناول، والجهة المستهدفة من الخطاب اساسا، ومع ذلك فهناك اتجاه بارز في هذه الموضوعات تكشفه القراءة المتأنية، والتأمل الهادئ، هذا الاتجاه هو: "محنة الإنسان المسلم اليوم".

فالمسلم اليوم يعيش في عالم مفتون بالشعارات والصراعات، عالم يتفنن في ابداع اشكال الباطل، وهياكل الفساد، وتلوين صنوف الخسة والرذيلة بصبغة الشرعية الدولية، وعقوق الإنسان !

ماهي مظاهر هذه المحنة ؟ ما اسبابها ؟ كيف يمكن التخلص منها ؟...

هذه الأسئلة تجيب عنها. مواضيع هذا العدد الذي نرجو أن يكون عند حسن ظن القارئ الكريم.

وبهذه المناسبة تجدد ادارة المجلة دعوتها للقراء عموما، وللكتاب خصوصا، بالمساهمة في تقويم هذا العدد الجديد، مع بعض انتاجاتهم التي تناسب التوجه العام للمجلة،وسنعتز بالمساهمات الجادة، والنقد البناء مهما كان مصدره، لأن الغاية التي نسعى الى تحقيقها هي نصرة الحق، والحق أحق أن يتبع.

ونبشر القراء بأن المجلة ستشرع ابتداء من العدد القادم بحول الله في معالجة قضايا وملفات هامة تستهدف التنويع في المضمون مع المحافظة في الشكل.

والسلام عليكم ورحمة الله

"الهدى"

الافتتاحية

أليس منكم رجل رشيد ؟!

نشرت جريدة "المسلمون" عدد 368 وما بعدها من الأعداد أن البابا قام في أواخر شهر يناير وأوائل فبراير 1992، بجولة عبر دول غرب افريقيا التي تبلغ نسبة المسلمين فيها أكثر من 90٪، وأقام قداسات متعددة، وبالأخص يوم الجمعة. وقد تمت هذه الجولة تحت شعار افريقيا مسيحية عام ألفين. والغريب في الأمر أن وسائل الإعلام الرسمية في الكثير من الدولة الإسلامية تجاهلت هذه الجولة تماما، فضلا عن التعليق عليها، في الوقت الذي لا تفتر وسائل الإعلام الرسمية والمعارضة عن تكرار ذكر "المسلمين المتطرفين".

إن هذا يطرح عدة تساؤلات في مقدمتها:

كيف يسمح رئيس دولة مسلمة بقيام البابا بجولة تستهدف تنصير المسلمين في بلده ؟! وكيف يسمح البابا لنفسه باستفزاز مشاعر المسلمين في عقر دارهم ؟!ألا يعد هذا نوعا من التطرف ؟؟ وإذا كان يعتبر كذلك، فلماذا لم تستنكره الجهات التي انتدبت نفسها لمقاومة التطرف والإرهاب؟! ثم إن الكثير من المبشرين الموجودين بدول افريقيا المسلمة سارعوا للإلتقاء به لتلقي تعاليمه وتوجيهاته، ألا يعتبر هذا تدخلا في الشؤون الداخلية لتلك الدول ؟! وقبل هذا وبعده لو قامت هذه الشعوب التي "تشرفت" بالزيارة البابوية بمظاهرات احتجاجية تستهدف استرجاع بعض الاعتبار لكرامتها المسلوبة، وهويتها المهانة، فكيف كانت ستقابل تلك المظاهرات أولا ؟! وماذا كان يمكن أن تقوله عنها وسائل إعلام الجهات، التي تنسب التطرف أو انتهاك حقوق الإنسان إلى من شاءت، وتسلبه عمن شاءت، بحسب مقاييس مختلفة ومفصلة على قد توجهات أهواء النظام العالمي الجديد، الذي أعطى سدنته لأنفسهم حق التشريع، والتنفيذ، والمراقبة، والتدخل، والردع، والتجويع، والتهديم، ومصادرة حقوق الشعوب والمستضعفين بدون حسيب ولا رقيب؟!

والسؤال الخطير: مادور العالم الإسلامي في النظام العالمي الجديد؟! إن كل زعماء المذاهب الدينية أو السياسية أو الاقتصادية يتسابقون إلى اكتساب مواقع جديدة، ورهانات متعددة في مختلف المجالات. فهل يطرح زعماء العالم الإسلامي على أنفسهم هذا التساؤل: ماذا نريد أن نكون خلال القرن المقبل ؟! أي صبغة تلائمنا ؟! هل نحافظ على (صبغة الله، ومن احسن من الله صبغة) أم نبقى مجرد حلقة مجهولة في مسلسل الهيمنة الاستكبارية العالمية ؟! ويكون كل همنا البحث عن أفضل طرق التقولب معها، والعيش في كنفها بسلام ؟! ونقنع من الغنيمة بالإياب الخاسر محليا دوليا ؟! سياسيا واقتصاديا ؟! دنيويا وأخرويا ؟!

وإذا اختار العالم الإسلامي لنفسه الحفاظ على صبغته الإسلامية ، فالله تعالى يامرنا أن نكون دعاة لدينه "ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة ..."سورة النحل" 125.

فهل زعماؤنا يخططون للدعوة الإسلامية تنفيذا للأمر الالاهي، كما يخطط غيرهم للقيام بالدعوة للمذاهب الفاسدة المفسدة ؟! وإذا كانوا يرون أن القضية أكبر من حجمهم وطاقتهم ومستواهم، أفلا يخططون ـ على الأقل ـ للحفاظ على مكاسب الأمة منذ مئات القرون، فيمنعون

عنها كل وسائل الفتنة، ويحمونها من التيارات الهدامة كيفما كان شكلها ومصدرها ؟!

يظهر أن مسألة الحسم في الهوية بالنسبة للعالم الإسلامي أصبحت مطروحة بإلحاح، خصوصا في هذا الوقت الذي عرف فيه العالم تغيرات جذرية، ومنعطفات تاريخية، وخصوصا - أيضا - من الوقت الذي مازال فيه الخلط بين الإسلام وغيره هو السمة البارزة في الخطاب السياسي والفكري لدى قادة النظم، وزعماء الأحزاب والمذاهب، والهيئآت الثقافية والإجتماعية، فالكل يتحدث عن الإسلام من مخزونه الثقافي، ومنظوره المذهبي، والسياسي، المحكوم بخلفية غير بريئة من التحامل المسخر لخدمة أغراض خاصة، النتيجة الطبيعية لكل ذلك احداث بلبلة فكرية، وهزة قوية في البنية الذاتية والروحية للأمة.

فإلى متى يبقى الجدال مطروحا فيما يخص تحكيم الشريعة أو عزلها عن الحياة ؟! وإلى متى سيبقى الجدال مفتوحا بين دعاة العلمانية ودعاة الإسلام الحاكم ؟! وإلى متى تبقى شعوب الأمة موزعة الهوى بين الولاء لله ورسوله، والولاء للشيطان وأوليائه وعملائه ؟!.

إن بعض زعماء العالم الإسلامي "يدستر" الإسلام - على استحياء - خداعا والهاء، والبعض يطرده علوا وكبرياء، ولكن الكل يجرم من يدعو للإسلام، ويمنعه من تأسيس أحزاب تدعو للإسلام، في حين يتمتع غيرها بالدعوة للإلحاد والعلمانية جهارا بهارا، فإذا ما شذ زعيم أصيل عن هذه القاعدة المتواصى بها، وأنصف المسلمين بإعطائهم الحق - كغيرهم - بتأسيس الأحزاب على أساس الإنتماء للإسلام، وتبني مبادئه، وخوض المعركة الإنتخابية بشعاراته، وكانت النتيجة لصالح الإسلام والمسلمين، كما هو متوقع من شعوب متعطشة للإسلام.إذا ماكان كل ذلك، - كما وقع بالجزائر - كانت الفضيحة الكبرى لدعاة الديمقراطية محليين وعالميين، يمينيين ويساريين، فالكل تنكر لمبادئه وقيمه، وسكت أوساند منكرا هزت الدنيا كلها فظاعته وبشاعته، لتبقى الحقيقة الوحيدة واضحة وضوح الشمس، وهي أن حضارة النظام العالمي القديم والجديد إلى زوال، لأنه مؤسس على الظلم والهوى، وفي المقابل فإن النظام العالمي المرشح لخلافته هو النظام الإسلامي العادل، الذي على رأس مبادئه: "ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا،اعدلوا هو أقرب للتقوى .." سورة المائدة:9 .

ان مثل هذه المهازل عرفها العالم الإسلامي طوال القرن العشرين، ومازال لم يظهر في الأفق أية بشارات تبشر بقرب انعتاقه من الاستعمار العالمي السافر أو المقنع، فكل الإرهاصات تدل على أن الهيمنة الاستكبارية استمرأت الافتراس، وألفت السيادة المفروضة بالقوة، وأنها ليست مستعدة للحوار الحضاري المتفاعل الذي يستهدف تكريم الإنسان وخدمة مصلحته بدون تعصب ولا عنصرية.

هذه المهازل التي مازالت تمارس تدل على أننا مازلنا نحمل نفس شروط الهبوط الحضاري، من : ميل لتقليد الغالب، واحتقار للذات، وتكريس للفرقة والاستبداد، وتوليد للحزبيات والعصبيات، وقابلية لبيع الضمائر والمبادئ في المزادات السرية والعلنية، ومن عدم السمو فوق الحزازات الشخصية وعبادة الذات والزعامة، وعدم التفكير الجدي في مستقبل الأمة على ضوء الواقع الزاحف بشراسة عليها للقضاء على كيانها المادي والمعنوي.

ان انتهاء هذه المهازل لا يمكن أن يتم الا بواسطة الاحتكام للشعوب والرضا بحكمها، لأنها هي المستهدفة في تاريخها وحاضرها، وغدها، في كيانها وروحها. في أمنها ورفاهيتها، في حضارتها وقيمها.

وأول شيء يتطلب الحسم هو تحديد الهوية. لأنها مصدر النزاع، وأساس كل توجه مستقبلي، وعلى هذا فيستوجب بإلحاح، إجراء استفتاء نزيه يشرف عليه نزهاء حول نقطة واحدة فقط، وهي : هل تفضلون الإحتكام إلى عدل الشريعة الإسلامية ؟! أم إلى أهواء العلماينة ؟! -

فإذا كانت النتيجة لصالح تحكيم الإسلام، فينبغي احترام الإرادة الشعبية، بالدسترة الحقيقية للإسلام: شكلا وموضوعا، تقنينا وتنقيذا، سياسة وتخطيطا، وتعليما واعدادا وإعلاما، وتنمية وانتاجا ... وتجريما لكل من يطعن في اختيارات الشعب أو يتعرض لها بالتسفيه والتنقيص والتطاول.

فهل توجد لدى زعمائنا الشجاعة لتنفيذ هذا الاقتراح مع تحمل نتائجه ولو إلى حد الاستشهاد ؟! أم أنهم يوثرون السلامة في ظل التبعية الذليلة، والتسلط على رغبات الأمة في ظل الآلة العسكرية التي تحركها الخيوط الأجنبية ؟!

فالحقيقة أن الأمة ما عرفت أخطر النكسات والهزائم المادية والمعنوية الافى ظل الحكم العسكري الذي قادها من خراب الى خراب، ومن ذل إلى استرقاق واستعباد، ومن جمود وركود وعقم حضاري إلى موت وقتل لكل الآمال والتطلعات المنعشة، لأنهم ماعرفوا الشرعية في اغتصابهم للحكم، فكيف يعرفونها في تصرفاتهم مع الأمة ؟!

إن الله تعالى فرض أقسى العقوبات على كل من يعبث في الأرض فسادا بالتطاول على أعراض المسلمين وممتلكاتهم، فقط، فقال سبحانه وتعالى : "إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع ايديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم، - سورة المائدة: 35 - فكيف بمن يغتال هوية الأم وأصالتها وروحها وتاريخها ؟! وكيف بمن يسرق السلطة، ويصادر أعظم حق من حقوق الأمة، وهو حق الاختيار لمن يستحق أن يقودها، ويستحق أن تضع بين يديه زمام امرها، سواء في المجال التشريعي أو التنفيذي ؟! وكيف بمن يفرض على الشعوب حكما بوليسيا يحصى عليها أنفاسها، سواء في الأحوال العادية، أو في حالات الطوارئ التي لا تكاد تنقضي دواعيها في المجتمعات الإسلامية المتعطشة للإنعتاق من قيود الظلم والخسف ؟! وكيف بمن لا يحترم ارادة الشعوب واختياراتها، فينعتها بالسفه وعدم احسان الإختيار، وينصبون أنفسهم أوصياء على شعب اختيار لنفسه من يمثلون طموحاته ورغباته في التغيير الجذري لكل التوجهات التي ملت الأمة سماع اسطواناتها المكرورة ؟! بل كيف بمن رمى بممثلي الشعب الحقيقيين في الزنازن والمنافي والمعتقلات، وأخرس أصواتهم، وصادر حقوقهم وحرياتهم ؟!

إنه لا يوجد أسعى في الأرض بالفساد، ممن يقف حاجزا بين الأمة وبين دينها الذي اختارت الانتساب إليه منذ قرون، ولا يوجد أفسد في الأرض ممن يطعن في الدين ويستهزئ بتعاليمه من أعلى المستويات الفكرية والسياسية والإعلامية، بدون أدنى مراعاة لمشاعر الأمة، كل ذلك من أجل حفنة من الدولارات ترهن مصير الشعب اجيالا وأجيالا. ولا يوجد أفسد في الأرض ممن يتزعم الدفاع عن الديموقراطية وحقوق الإنسان، فإذا ما كان هذا الإنسان مسلما، لم يستحق الدفاع عنه لأنه بدون حقوق من دون الناس. جميعا.

ان اعداء الأمة نجحوا في جعل دينهم المزيف أحد وسائل التمهيد للغزو الفكري والاقتصادي وظن تلاميذ الغرب من أبناء جلدتنا أن أسيادهم يعيشون بدون دين، فقلد وهم ودعوا إلى العلمنة جريا وراء التقدم والتحضر، فأصبحوا بدون دين ولا تحضر ولا تقدم، والنتيجة: شتات شعوب الأمة المسلمة وتمزقها فكريا وروحيا، وثقافيا وسياسيا، وارتماؤها بين أحضان القوى العالمية الغاشمة.

أليس من قادتنا وزعمائنا رجل رشيد يجمع الشمل، ويوحد الشتات على أساس دين الإسلام، دين الوحدة والاعتصام بحبل الله ؟!

مع كتاب الله عز وجل

القرآن الكريم : طبيعته ووظيفته*

الدكتور: الشاهد البوشيخي

قال الله تعالى : "قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور باذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم" .

سورة المائدة 15 ـ 16

بسم الله الرحمن الرحيم. وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه. ولاحول ولاقوة إلا بالله العلي العظيم. سبحانك لاعلم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم. اللهم افتح لنا أبواب الرحمة، وأنطقنا بالحكمة، واجعلنا من الراشدين فضلا منك ونعمة.

اولا : إحياء القرآن للإنسان :

إخواني الكرام : انني ماجئت اليوم معلما ، ولا جئت مفسرا ، ولا جئت عارض بضاعة كثرت عندي، وإنما سعيت كما سعيتم إلى مجلس يتلى فيه كتاب الله عز وجل، ويجتمع فيه على مائدة القرآن، مجلس تبحث عنه الملائكة وتسعى اليه، ملتمسا مثلكم حياة قلبي بالقرآن، وتنور بصيرتي بالقرآن، وهداية تخرجني من الظلمات إلى النور بالقرآن، وشفاء لجميع أدوائي الظاهرة والباطنة بالقرآن، ورحمة لي ولكم وللأمة جمعاء والعالمين أجمعين بالقرآن.

1 ـ القرآن غذاء الروح: إخواني ، إن الله سبحانه وتعالى جعل هذا الإنسان من عنصرين:خلقه من طين حتى إذا سواه نفخ فيه من روحه، خلقه من طين، ثم من روح، هذا الجانب الطيني في الإنسان له غذاء، والجانب الروحي فيه له غذاء آخر يخالف الغذاء الأول، الجانب الطيني مرده إلى هذه الأرض، منها خلقنا ، ومنها نغذي هذا القسم فينا من جميع مافي هذه الأرض، من نباتها ومن حيوانها ، ومما فيها وما عليها وما حولها من هواء،وغير ذلك من مواد ، يغذى هذا القسم الطيني فينا ، ولكن الذي يسير هذا القسم الطيني فينا هو القسم الآخر الروحي الذي هو من الله عز وجل، ومن أمر الله سبحانه "ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي" (1) هو من أمر الله عز وجل، هذا القسم بم يتغذى؟وهو هو القسم الذي يحكم ويسير القسم الآخر ، فعلى حسب ظلمته ونورا نيته يكون هذا التوجيه لهذا الجسد، ذلك القسم مم يتغذى ؟ انما غذاؤه من حيث جاء، أي من الله عز وجل فالله عز وجل رحمة بنا حين خلقنا واستخلف أبانا آدم في هذه الأرض، ثم استخلف ذريته من بعده، وجعلهم خلائف في الأرض، رحمة بنا انزل هدى من عنده، أنزل غذاء من عنده لهذه الأرواح. هذا الغذاء اذا تم تناوله وفق جرعات معينة، وفق نظام معين أثمر ثمرته وغذى هذه الأرواح فعلا، واستطاعت أن تقوم بوظيفة الخلافة في هذه الأرض، وتضطلع بكل ما استخلفت عليه فيها بقوة وأمانة . أما إذا لم تتغذ بهذا الغذاء الرباني فإنها تموت، تجوع ثم تجوع ثم تموت نهائيا. فإذا ماتت اصبح الطين من الناحية العملية هو المهيمن، وأصبحت الأفكار التي يجب أن تكون في مستوى نوراني عال اصبحت أيضا ارضية، أصبحت طينية كذلك وأصبح الإنسان ابعد ما يكون عن أن يقوم بالخلافة في الأرض.

2 ـ القرآن هو الكتاب في صورته الكاملة: هذا الغذاء النازل من عند الله عز وجل عبر مراحل ومراحل

* درس افتتاحي لمجالس تدارس القرآن الكريم التي استأنفها الأستاذ الشاهد البوشيخي في الخميس الأول من شهر رمضان المبارك سنة 1412 هـ. نسأل الله عز وجل له التوفيق وتيسير الأسباب وانتفاء الموانع.

(1) سورة الاسراء : 85

منذ آدم عليه السلام إلى محمد صلى الله عليه وسلم، هذا الغذاء الذي تتم به التغذية فعلا هو الوحي الذي جاء من عند الله عز وجل مقسطا في رسالات يعتبر مجموعها هو الدين الذي نزل على مراحل حسب درجة نمو هذا الإنسان الفرد، والإنسان المجتمع، والإنسان النوع فعلى حسب المراحل التي مر بها هذا الإنسان، كان الهدى النازل اليه ملائما للفترة التاريخية التي يمر بها، حتى إذا وصل الإنسان في نموه واستعداده الفردي والجماعي إلى درجة يصير فيها مؤهلا لأن ينزل عليه الهدى كاملا، نزل الكتاب، نزل كتاب الله عز وجل بكامله، لابعض منه،نزل مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه. السابقون اوتوا نصيبا من الكتاب، أما الآن فقد نزل الكتاب بكامله للإنسانية في الصورة النموذجية، بعد أن بلغ الإنسان رشده، وبلغ اشده، وصار صالحا لأن يحمل الأمانة، متفاعلا معها مباشرة، يواجه وقائع الظروف والأحداث والزمان، يواجهها متفاعلا مع ذلك الهدى مستجيبا لما يجب عن طريق الاجتهاد.

3 ـ القرآن للقلوب كالغيث للأرض: هذا الهدى والغذاء الذي هو الكتاب وهو القرآن يصف لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم تنزله مشبها له بغيث قائلا : "مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث اصاب أرضا ..." ثم يعطينا ثلاثة اصناف من الأرضين، طائفة طيبة قبلت الماء فانبتت الكلأ والعشب الكثير، وطائفة انما هي اجادب امسكت الماء ولم تنتفع به، لكن سقى منها الناس وزرعوا، وطائفة ثالثة انما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ.

ثم يقول : "فذلك مثل من فُقه في دين الله ، ونفعه ما بعثني الله به ، فعلمَه وعلّمَه، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به" رواه البخاري ومسلم والنسائي.

فطبيعة هذا الهدى إذن كطبيعة الغيث. هو كالماء فعلا بالنسبة إلى القلوب: قلوب ابناء آدم، ينزل فيها الماء الرباني فتحيا، يفعل فيها إذا قبلته فعل الماء في الأرض الخصبة، والقلوب الطيبة فعلا تقبل هذا الهدى فتزكو، فينتج عن ذلك أثر في الفكر، وأثر في السلوك، وأثر في الحياة العامة والخاصة التي تحيط بالشخص، وتحيط بعد بالجماعة التي تغذت بهذا الماء، فتحدث الحياة، وتحدث مظاهر الحياة كلها.

الماء يحدث الحياة في الأرض الطيبة، ويرى أثر تلك الحياة بارزا فيما أنتجت تلك الأرض: تهتز، تربو، تخرج من كل زوج بهيج ... ومثل ذلك الأثر بالضبط ايضا يحدثه الهدى النازل في القلوب، إذا قبلته القلوب، اذا انفتحت أبواب القلوب لهذا الهدى، تغذت بهذا الماء الرباني . يحدث ذلك الأثر الذي هوالحياة. "أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها"!

ثانيا : تنوير القرآن للإنسان:

القرآن نور: وأول أثر لهذا الغذاء انه يحيي هذا الكائن الذي يتغذى به، فيصبح سليم الحواس، ويستقبل ما حوله من مؤثرات استقبالا صحيحا، ويستجيب لها استجابة صحيحة. فيحدث له بسبب ذلك تنور "... وجعلنا له نورا ..." . "... قد جاءكم من الله نور ..." وفي هذا تحديد لطبيعة هذا القرآن، وتحديد لطبيعة هذا الكتاب النازل من عند الله عز وجل، طبيعته أنه نور، ووظيفة النور العادية أن يكشف كل شيء على حقيقته، فسليم الحواس الحي يستطيع الإبصار اذن للمبصرات بوضوح، ويستطيع السمع للمسموعات. بوضوح، ويستطيع الشم للمشمومات بوضوح ... وهكذا، فكل ما هو قابل للإدراك في الصورة الطبيعية العادية يستطيع سليم الحواس الحي بالماء النازل عليه من الله عز وجل المحيي لقلبه أن يدركه، يستطيع بوجود النور أن يرى الأشياء كما هي بدءا من الحقيقة العظمى التي منها كل شيء، واليها يرجع كل شيء، وبها قائم كل شيء، وإليها مصير كل شيء: الله عز وجل.

فالله جل جلاله أول ما يدرك، وأول ما يدرك هذا الكائن الذي حيي، الكائن الذي خرج من الموت إلى الحياة بسبب هذا النفخ الرباني فيه، أول مايدرك هذه الحقيقة

الكبرى يدرك الله عز وجل، يعرف الله عز وجل، وتلك بداية الخير كله، من عرف الله فقد عرف كل شيء، ومن فاتته معرفة الله فقد فاته كل شيء.

فالكائن الحي السليم الحواس بسبب هذا القوت النازل، بسبب هذا الماء النازل من عند الله عز وجل، اقول : يجعل الله له نورا، وبواسطة ذلك النور يرى الأشياء كما هي، رؤية الأشياء كما هي ينتج عنها أيضا بصورة طبيعية الدرجة الموالية ، والرتبة الثالثة بعد الحياة والتنور، وهي رتبة الإهداء.

ثالثا : هداية القرآن للإنسان

1 ـ النور سبب الاهتداء لمن استنار به : فالعبد فعلا يعرف طريقه، يبصر طريقه، يهتدي بهدى الله عز وجل. فالسليم الحواس إذا رأى حفرة أمامه هل يضع رجله فيها ، وهي حفرة كبيرة عميقة ـ إذا وضع رجله فيها هلك ؟! هل سليم الحواس يستطيع ذلك فعلا ؟ ويجرؤ هذه الجرأة ؟ ويقدم على هذه المغامرة ؟ فيضع رجله وهو يرى هذه الحفرة بوضوح في ضوء النور، هل يضع رجله فيها ليهلك ؟ كلا ثم كلا. لا يمكن ان يحدث هذا الا إذا لم يكن نور نهائيا ، أو كان هناك ما يمنع من التنور بهذا النور، كما إذا كان هناك جنون أو غيبوبة، أو ان الحواس غير سليمة، فيها مرض.

2 ـ انواع القلوب في علاقتها بالنور : والقلوب أنواع أما قلب المومن الصادق، ـ نسال الله عز وجل ان يجعلنا وإياكم من المومنين الصادقين ـ فمثل السراج يزهر بالإيمان ، وأما قلب الكافر فهو كالكوز مجخيا كما عبر رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا، لا يعرف منكرا من معروف، ولا معروفا من منكر، يمشي منكسا على رأسه . "أفمن يمشي مكبا على وجهه أهدى أمن يمشي سويا على صراط مستقيم"(1) فالكافر لا يستطيع الرؤية لأن على بصره غشاوة."إن الذين كفروا سواء عليهم آنذرتهم أم لم تنذرهم لا يومنون ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ..(2) "الحواس الأساسية هي هاته .

"قل هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون" (3)

فالسمع والأبصار تتوصل إلى القلب الذي يعطي ما ينبغي، يحلل معطيات الحواس ليكون الموقف السديد السليم صحيحا ، فإذا ختم الله على السمع والبصر، أي وضع طابعا يسد به هذه الأسماع وهذه الأبصار، وهذه القلوب كيف يمكن أن يصل إليها النور؟! كيف يمكن بعد ذلك أن ترى وتبصر الطريق ؟ ألا لا هداية لكافر، ولا سبيل إلى أن يهتدي، مادام مصرا على كفره، لأنه مغلق للوسائل التي ينفذ منها النور الرباني اليه، هو مغلق لها ساد لمنافذها. والقلب الثالث هو القلب المريض الذي تعتريه الصحة والفساد ، فيه جانب صحيح، وجانب فاسد، فهو بحسب ما غلب عليه.

فالقلب المؤمن يبصر الطريق بلا إشكال، والقلب الكافر لن يبصر الطريق، والقلب المريض مضطرب، يبصر بعضا ، ولا يبصر بعضا.

فهذه الرتبة الثالثة التي هي رتبة الاهتداء، والتي مردها إلى ذلك الغذاء الأصل الذي هو كتاب الله عز وجل، القرآن الكريم، هذه الرتبة تنتج نتاجا طبيعيا عن الرتبة الثانية التي هي رتبة النور، فيبصر الإنسان طريقه، ويميز الطيب من الخبيث، ويميز الحلال من الحرام ويميز الصالح من الفاسد، ويميز المفسد من المصلح، ويميز كل شيء، ويتضح له الطريق طريق الحق، والصراط المستقيم.

3 ـ القرآن هدى لمن اتبعه: ومن هاهنا كانت هذه الصفة للقرآن بعد صفة النور أنه هدى، "قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء"(4) ."الم ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين"(5) "شهر رمضان الذي انزل فيه القرآن هدى للناس" (6) فهو ايضا من حيث طبيعته عبارة عن هدى: هداية، ارشاد ، دلالة توضح الطريق كل الوضوح في ضوء النور الموجود. أما إذا لم يكن نور فلا سبيل، ولذلك قالت الآية الكريمة: "قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام"(7) أما إذا لم يتبع فلا سبيل الى هدايته بهذا النور، لأنه لا يمكن أن يراه، فإذا

(1) سورة الملك : 22
(2) سورة البقرة : 6 ـ 7
(3) سورة الملك : 23
(4) سورة فصلت : 44
(5) سورة البقرة : 1
(6) سورة البقرة : 185
(7) سورة المائدة : 6

اغمضنا اعيننا والنور قوي موجود، لكن العين عليها غشاوة، العين مغمضة فإننا لا نبصر شيئا ولو مع وجود النور، لكون هذا النور نفسه لا سبيل اليه الا بالاتباع، فلا اهتداء إلا بالاتباع "يهدي به الله من اتبع" لاسواه، فردا كان او جماعة أو مجتمعا أو نوعا، "من اتبع" رضوان الله لا سخط الله.

ففي القرآن ـ والقران مثاني ـ النظائر، فيه الخير والشر، فيه الترغيب والترهيب، فيه وصف الكفر وفيه وصف الإيمان، كله نظائر ومثاني. "فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون احسنه اولئك الذين هداهم الله ..."(1) وإنما يهدي به الله من اتبع رضوانه لا الذي اتبع سخطه. وترغيبا في هذا الإهتداء إلى اقصى حد كان التعبير بالرضوان لا بالرضى فقط "يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام". لأن الذي تحرى اتباع الأرضى لله عز وجل لاأشك أنه الأهدى: وانه الأرشد، وأنه الأكثر حظا وانتفاعا بهذا الهدى الذي جاء من عند الله عز وجل.

4 ـ الهداية هي أول مطلوب : ونتيجة البصر بالطريق نصل إلى الهدى، وانتم تعلمون أن هذا الكتاب فرض الله علينا فيه فرضا كل يوم، دعاء كل يوم، ولهذا الدعاء محور واحد يتكرر اجباريا بالنسبة للمؤمن سبع عشرة مرة، هو "إهدنا الصراط المستقيم" فالذي لم يهتد إلى الصراط المستقيم ضل في الدنيا وهلك في الآخرة، ضل في الدنيا وشقي، وضل في الآخرة وشقي كذلك. الذي لم يهتد خسر الخسران المبين. فكون الإنسان جاع أو عري أو مرض إلى غير ذلك من العوارض التي تعرض للإنسان، كل ذلك هين بالنسبة إلى أمر جلل، هو أن لا يهتدي الإنسان، أما إذا اهتدى، فمع الجوع والعري، ومع أي احتمال آخر يمكن أن يكون، فقد فاز فوزا عظيما. على أنه إذا اهتدى بالنور الرباني فبإذن الله عز وجل لن يجوع ولن يعرى إلا ابتلاء وفتنة إلى حين. نعم هناك "ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين(2) ..."

نعم قد يقع البلاء بشيء من ذلك، ولكنه عارض وعاقبته حميدة. أما الذي ضل ولم يعرف الصراط، ولم يعرف الطريق، ولم يهتد إلى المنهج ـ وما جاء الدين الا ليوضح هذا المنهج، الا ليوضح الطريق، والصراط هو الطريق اللاحب الكبير الواضح ـ الذي ضل ولم يعرف الصراط، مهما تمتع تمتع الأنعام في الدنيا فإنه قد خسر خسرانا مبينا في حياته الأخرى التي هي الحياة "وأن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون"(3).

رابعا : إخراج القرآن للإنسان من الظلمات إلى النور.

1 ـ بالقرآن يعم إنقاذ الإنسان

أقول : بعد الاهتداء نصل الى رتبة رابعة يرشد اليها القرآن أيضا في تحديد وظيفته وهي نتيجة طبيعية أيضا في ترتبها على ما قبلها، تلكم انه يحدث ـ بسبب هذا الإهتداء الى الصراط المستقيم ـ الخروج من الظلمات إلى النور . "يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور باذنه"(4) سبل السلام في الدنيا والآخرة، فالجنة كما تعلمون هي دار السلام، والله يدعو إلى دار السلام، وسبل السلام كثيرة في كل مناحي الحياة، كثيرة جدا، يهتدي اليها من اتبع رضوان الله، فردا، او جماعة،أو مجتمعا، أو نوعا، يهتدي اليه في كل مجالات الحياة إن اتبع رضوان الله، وبسبب ذلك يحدث له الخروج الكامل والمفاصلة، الخروج الكامل من الظلمات بجميع أشكالها وألوانها: ظلمات القلب، ظلمات الفكر، ظلمات القول، ظلمات العمل، الظلمات التي تكون في الحالة الفردية، والظلمات التي تكون في الحالة الإجتماعية على أي مستوى كانت، ومن أي لون، يحدث للعبد بسبب الإهتداء الخروج منها بفضل الله عز وجل.

2 ـ الظلمات ألوان والنور واحد.

"يخرجهم من الظلمات إلى النور" الظلمات جمع، فهي اشكال والوان، وتدل على أن صور الضلال، وصور الفساد، وصور الفسق، وصور الكفر، وصور الإلحاد، وصور التيه ... أشكال وألوان لاحد لها ولا حصر، ولكن طريق الحق واحد، ومصدره واحد ، "الله نور السموات والأرض"(5) ، والذي يخرج من الظلمات يخرج إلى الله عز وجل ، "ففروا إلى الله اني لكم منه نذير مبين"(6)

---

(1) سورة الزمر : 17
(2) سورة البقرة : 155
(3) سورة العنكبوت : 64
(4) سورة المائدة :6
(5) سورة النور : 35
(6) سورة الذاريات : 50

يخرج إلى النور، وإلى أثر هذا النور في الواقع، الله عز وجل هو نور السموات والأرض، وهذا الكتاب هو نور من الله عز وجل، "يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم"(1)

هذا الذي جاء منه سبحانه كان نورا فعلا، نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم، أضاء المنطقة التي ظهر بها، واستمرت اضاءته لما حولها في كل نقط حل بها، ورسول الله صلى الله عليه وسلم بسبب أتباعه للقرآن صار هو نفسه كذلك مصدرا نورانيا، كما قال الله عز وجل: "يا أيها النبي إنا ارسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله باذنه وسراجا منيرا" (2).

نعم، سراجا منيرا. فهذه الإنارة الموجودة في رسول الله صلى الله عليه وسلم هي نازلة عليه من الله عز وجل، هي هذا القرآن الذي هي محض نور هكذا: "قد جاءكم من الله نور" (3)، "فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا"(4)، "فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي انزل معه"(5). هذا النور نازل من عند الله عز وجل، واليه يتم الخروج من جميع الظلمات، وبه يتم الخروج أيضا من جميع الظلمات.

"يخرجهم من الظلمات إلى النور باذنه" (6) بقدرته، بحوله، بطوله، بمشيئته، فلا أحد ينتقل من شر إلى خير الا بفضل الله ورحمته سبحانه وتعالى.

ومن هنا نصل - عندما يتم هذا الخروج تلقائيا - إلى صفة أخرى يرشد إليها القرآن، انها من طبيعته ومن وظيفته هي الرحمة. "وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة" (7).

خامسا : شفاء القرآن للإنسان :

القرآن وظمأ الإنسان : الشفاء في الحقيقة مرحلة سابقة للرحمة، ترشد إلى هذا العطش وهذا الظمأ الذي للكائن البشري للحقيقة الربانية.

في كل منا تعطش إلى معرفة الأشياء كما هي، ولا يتم له ذلك على وجهه الصحيح الا بالقرآن، لكن القرآن لا يفضي ببعض سره إلا مع التدبر، "افلا يتدبرون القرآن"(8)، وقد استنكر الله علينا هذا مرتين في كتابه عز وجل الذي هو "كتاب انزلناه اليك مبارك ليدبروا آياته"(9).

إذا لم يقع التدبر فلن يقع قطعا الوصول إلى المقصود، ولن يظفر بالمراد من كتاب الله عز وجل.

فهذا القلق النفسي، وهذا الظمأ وهذا العطش للحقائق الكبرى والعليا سواء تعلقت بالمنشأ أو بالمآل، أو تعلقت بالغيب المواجه في كل لحظة، الغيب العاجل، أو الغيب الآجل، أو تعلقت بما في الأرض، أو بما في السماء، كل ذلك الشفاء منه موجود في كتاب الله عز وجل.

سادسا: رحمة القرآن للإنسان:

1 ـ كل ما تقدم من الخصائص والوظائف سبب رحمة:

إن القرآن الكريم يصير بسبب كل هذا رحمة: بسبب إحيائه للكائن البشري بعد موات، وبسبب تنويره له بعد ظلمة، وبسبب هدايته له بعد ضلال، وبسبب إخراجه له من الظلمات إلى النور، وبسبب شفائه له من كل داء، بسبب ذلك يصل العبد إلى المرحلة التي يدخل بها في الرحمة، وهي الدرجة العليا في الدنيا والآخرة.

انظر الى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مجلس القرآن "ماجتمع قوم" على أي شيء كان هؤلاء القوم، "في بيت من بيوت الله"، والأرض كلها بيت الله، حقا، ان بيوت الله تلك التي أذن فيها أن ترفع، ولكن الأرض أيضا جعلت لنا مسجدا وطهورا، وهذا من خصوصيات رسول الله صلى الله عليه وسلم "يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم الا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائمة، وذكرهم الله فيمن عنده"، التلاوة لكتاب الله عز وجل في حد ذاتها هي بدء نزول الغيث الرباني، غيث الهدى والعلم والرحمة، ورسول الله صلى الله عليه وسلم أول ما كان يفعل بالإنسان الذي ياتي اليه مستهديا يقرأ عليه القرآن، يتلو عليه القرآن، فللقرآن بمجرد تلاوته له تأثير خاص، وله فضل كبير على العبد التالي نفسه، "من قرأ حرفا من كتاب الله فله

---

(1) سورة التوبة : 32
(2) سورةالاحزاب : 46
(3) سورة المائدية : 15
(4) سورة التغابن : 8
(5) سورة الاعراف : 197
(6) سورة المائدة : 16
(7) سورةالإسراء : 82
(8) سورة محمد : 28
(9) سورة ص : 29

حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول : الم حرف، ولكن الف حرف، ولام حرف، وميم حرف" .

والمتلو عليه القرآن اذا قدر له ان يستمع وينصت فإن الرحمة تتنزل في قلبه بمجرد ذلك، "وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون" (1) وإن هاته الرحمة تنزل عليه في قلبه سكينة ونورا، وأمنا وأمانا، وعلما وفهما، تتنزل عليه بمجرد التلاوة احيانا إذا القى العبد السمع وهو شهيد، أي شهيد الحضور، لا منصرفا عما يتلى، لا غائبا عما يتلى، بل حاضر شديد الحضور، كما جاء في كتاب الله عز وجل: "إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد"(2)، أي حاضر جدا،

2 ـ كيف نُرحم ونَرحم بالقرآن: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبتدئ بهذه التلاوة في تفهيم المراد في هذا القرآن ، لأنه قبل أن نعرف المراد من هذا القرآن لا يمكن أن نطبقه، هذه رسالة جاءت من عند رب العزة قبل أن نعرف محتواها هل نستطيع الإجابة عنها؟ أو نستطيع الإستجابة لها؟ لا يمكن ، ولا سبيل إلى ذلك.

ينبغي أولا التلقي بقلب حاضر، وبعد ذلك ياتي تعلم المراد من ذلك الملقى، تعلم المراد، ثم تعلم كيفية العمل بذلك المراد، وهو تعلم الحكمة ، ثم تاتي الممارسة وكانت تراقب من رسول الله صلى اليه عليه وسلم تزكية لصاحبها.

إذا حدث ذلك في مجلس من المجالس، اجتماع فتلاوة، فتدارس، ما الذي يحدث من النتائج ؟ "نزلت عليهم السكينة" والسكينة إذا تنزلت في القلب ازداد العبد بها إيمانا، ثم "غشيتهم الرحمة" أي صارت بمثابة غشاء يغطي أهل المجلس، وهذا الذي اردت من هذا الحديث،انا ندخل بسبب القرآن في الرحمة، والرحمة تبعد الاختلاف وتجلب الائتلاف، "ولا يزالون مختلفين الامن رحم ربك"(3) فعند مجيء الرحمة تأتلف القلوب، تنصهر وتصير كالشيء الواحد، وهي نتيجة لكل تلك المراحل السابقة.

فإذا دخلنا في الرحمة في هذه الدنيا ، وادخلنا الله في رحمته في الآخرة، فتلك هي المنزلة العلية، وذلك هو الفوز الكبير، وذلك هوالفضل العظيم.

سابعا : القرآن مصدر كل خير :

هذا الخير كله للفرد أو للجماعة أو للمجتمع أو للبشرية إذا من الله في وقت من الأوقات بعموم الخير فيه، وليس ذلك ببعيد، أقول : هذا الخير إنما مصدره شيء واحد هو كتاب الله عز وجل ، وهذا بيت القصيد.

كتاب الله عز وجل رأس الخير كله في هذه الدنيا منذ استخلف آدم ، لأن مانزل قبل هو من الكتاب، "ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب"(4) فإذا قلنا ، إن جميع ما في الأرض من خير سببه هذا الكتاب فما أبعدنا ، لأن ما نزل قبل هو من الكتاب، وعند الله عز وجل أم الكتاب، يمحو ما يشاء من ذلك ويثبت حسب المراحل التاريخية، وأخيرا نزل الكتاب فما من خير عرفه الكون على يد أبناء آدم إلا وجاء على يد ما نزل من الكتاب، ذلك الذي اشير اليه يوم أهبط آدم فقيل له :

"قلنا اهبطوا منها جميعا فإما ياتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون"(5)، أو "فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى"(6) يحشر أعمى كما كان هنا اعمى، قال أحد المؤلفين القدماء: "إن الكافر يحشر أعمى لأنه هاهنا كان أعمى" ، ومن تلقى القرآن بعمى بعث يوم القيامة كذلك. "ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتني اعمى وقد كنت بصيرا. قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى" نسيانه لآيات الله في الدنيا هو عمى "قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء، والذين لا يومنون في آذانهم وقر" ـ أي ثقف في السمع ـ "...وهو عليهم عمى اولئك ينادون من مكان بعيد" (7) فلا يصل اليهم خبر فلا يتأثرون ولا تصل اليهم المعلومات، فلا تظهر فيهم نتائج المعلوما.

أقول: هذا النور، هذا الخير هو مصدر كل خير في هذه

---

(1) سورة الأعراف : 204
(2) سورة ق : 37
(3) سورة هود : 119
(4) سورة آل عمران: 23
(5) سورة البقرة : 38
(6) سورة طه : 126
(7) سورة فصلت : 44

الأرض منذ آدم عليه السلام، نزل منه مانزل، وظل يتنزل منه ما يتنزل ، ويجدد تنزيله الى أن نزل بكامله في الصورة الكاملة التي هو عليها اليوم.

نحن والقرآن

والآن ونحن أمام هذا الخير العظيم، هذا الخير الذي ما دخلنا إلى التاريخ إلا به وما خرجنا من التاريخ الا بالإعراض عنه وعدم الاهتداء به، ما صرنا إلى الحال التي صرنا فيها أسوأ من المغضوب عليهم إلا بالإعراض عن هذا الكتاب، إلا بهجران هذا الكتاب، إلا بالبعد عن هذا الكتاب ، وقد بلغنا في البعد إلى حد أنا أخرجناه من ديارنا ومجالسنا، حتى اللغة التي بها نزل صار بيننا وبينها حواجز، صارت شاقة علينا أن نعرفها، ومن ثم صار شاقا علينا أن نعرف المراد من كتاب الله عز وجل ، أبعدنا عنه فما عدنا نلتقي به أجباريا كما ينبغي أن يكون في التعليم، لأن عدم تعلمه ينتج الضلال، ولا سبيل إلى معرفة الطريق بغير هذا الهدى ، هدى الله: "قل ان الهدى هدى الله"(1) ولا سبيل إلى هدى إلا من الله وبالله.

هذا الهدى جماعه القرآن، به دخلنا أولا في التاريخ، وبهِ اخرجنا من الظلمات إلى النور، وبالابتعاد عنه تقلص ظلنا من جميع الأمصار التي كنا فيها سادة قادة، كالأندلس، وصقلية، وشبه جزيرة البلقان، وجنوب روسيا بكاملها، والشرق الإسلامي الأقصى، ومناطق ومناطق...

وبالابتعاد عنه أيضا خرجنا نحن في ديارنا منا، خرجنا نحن من ذاتنا التاريخية، خرجنا نحن من كينونتنا الخاصة، وهويتنا الخاصة، وصرنا خلقا غريبا جدا، ما عدنا الخلق الذي تركه رسول الله صلى الله عليه وسلم، الخلق الذي طلب منه أن يشهد على الناس، لأننا لا نستطيع الشهادة حتى على أنفسنا، فكيف نكون شهداء على الناس ؟! والمطلوب أن نكون شهداء على الناس، وما أخرجنا من الظلمات إلى النور إلا للناس، "كنتم خير أمة أخرجت" لا لأنفسكم، بل "للناس".

المومن في موقع الإرسال لا في موقع الإستقبال، المومن في موقع ارسال النور، في موقع الإشعاع، في موقع ايصال الخير وتبليغه إلى الناس، وليس في موقع التبعية ، في موقع الذلة والمسكنة، في موقع استقبال الشر والويل والثبور، نسأل الله السلامة والعافية.

كيف ابعدنا وكيف نعود إلى القرآن

هذا القرآن أقول : أبعدنا عنه بخطة كافر دخل ديارنا ، وأبعد كتاب الله من المدارس، وأبعد السنة من المدارس، واجتهد في ابعاد العربية أيضا، ومازالت مبعدة إلى حد بعيد، وأنه يجب الآن إذا أردنا أن نعود من جديد إلى التاريخ، وان ندخله من جديد، يجب أن نعود إلى هذا النور، يجب أن نشرب من هذا الماء الرباني، لابد من أن نتضلع منه، لابد من أن نرتوي حتى يخرج من مسام جلدنا، لابد من أن نستدرج القرآن بين جنوبنا، نعود اليه أفرادا، ونحن نملك هذا الإختيار، ولا تستطيع أي قوة كيفما كانت أن تفصل بين الإنسان وبين القرآن وبين الإيمان، يجب أن نجتهد فرديا في أن نتمسك بالقرآن، أو كما عبر القرآن ، أن نمسك بالقرآن، "والذين يمسكون بالكتاب ..." (2)أي يمسكونه بقوة ، "يايحيى خذ الكتاب بقوة" (3) أما إذا أخذته بضعف تفلت منك، لأنه يتفلت كما تتفلت الإبل من عُقلها.

اقول نحن الآن فعلا على موعد مع التاريخ، وان الخير قادم يراه من يبصر، يراه رأي العين، وأن الخميرة خميرة القرآن عادت من جديد للنشاط في الكرة الأرضية منذ زمان، منذ نحو القرنين تقريبا، منذ الصفعة الأروبية العنيفة للعالم الإسلامي من اقصاه إلى اقصاه، منذ الضربات والنكسات والويلات المتتالية في العالم الإسلامي التي ما منها واحدة إلا وقامت أو تقوم بدور في الإيقاظ ولله الحمد، فرب نقمة في طيها نعمة، ولقد خدم

المسلمون خدمة جلى بمجيئ الاستعمار، وهذا أمر غريب، ولكنه الحقيقة أيضا من زاوية معينة ، هي زاوية الإيقاظ، وخدم المسلمون خدمة جلى بغرس الخنجر الصهيوني في قلب العالم العربي والعالم الإسلامي، لقد كان ذلك سببا في ايقاظهم من سباتهم العميق، كان ذلك سببا في أن يهبوا لرد الصفعات واللكمات، كان ذلك سببا في أن يستفيقوا ، وماتزال الضربات تتوالى حتى نستيقظ فرديا وجماعيا ، لأن اليقظة الفردية لا تكفي، ولا قيمة لها إلا بمقدارما تحول نفسها إلى يقظة جماعية.

أقول : إذا أردنا أن نعود من جديد، وتعود هذه الأمة الإسلامية التي هي خير أمة أخرجت للناس، لابد أن نعود إلى هذا القرآن افرادا، نعود إلى الإدمان على هذا القرآن، وإلى استهلاك هذا القرآن قبل استهلاك الخبز، لأن الجوع الحقيقي هو جوع الأرواح، إذا ذهبنا إلى الآخرة وبطوننا جائعة، ولكن قلوبنا ملأى بلا إله الا الله على حقيقتها ، خالصة لوجهة الكريم، فإننا نذهب شباعا بطانا، لاخماصا ، والعكس بالعكس، إذا ذهبنا منتفخي البطون، ولكن قلوبنا ليس بها لا اله إلا الله على الوجه المرضي عند الله فاننا نذهب خماصا حقا، ونذهب جياعا حقا.

ان التملؤ من هذا الكتاب والتضلع منه والارتواء منه، ينبغي أن يكون ديدن الفرد منا، وان يجتهد كذلك في ذريته وابنائه ما وسعه الجهد، يجتهد على الصورة الفردية ويجتهد على الصورة الجماعية، وذلك بالتعاون مع سواه على البر والتقوى، وعدم التعاون على الإثم والعدوان، ودعوة القرآن الى التعاون على البر والتقوى تعني أن جانبا من البر والتقوى لا يمكن أن يتحقق إلا بالتعاون، ولذلك كان الأمر الرباني : "وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان"(1) .

نسأل الله عز وجل ان يجعلنا من عباده الذين يمسكون بهذا الكتاب وبما فيه، ويحيي أمة الإسلام بالقرآن، وينور قلوبها بالقرآن، ويهديها سبل السلام بالقرآن، ويخرجها من الظلمات إلى النور بالقرآن ، ويشفيها من جميع الأدواء بالقرآن، ويرحمها رحمة شاملة باسم الرحمن الرحيم بالقرآن.

اللهم اهدنا فيمن هديت، وعافنا فيمن عافيت، وتولنا فيمن توليت، وبارك لنا فيما اعطيت، وقنا شر ما قضيت، فانك تقضي ولا يقضى عليك، انه لا يذل من واليت، ولا يعز من عاديت، تباركت ربنا وتعاليت.

اللهم انفعنا بما علمتنا، وعلمنا ما ينفعنا وزدنا علما.

اللهم احينا على ما حيي به نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وأمتنا على ما مات عليه. اللهم انا نسالك بعلمك الغيب، وقد رتك عل الخلق، أحينا اذا كانت الحياة خيرا لنا ، وتوفنا إذا كانت الوفاة خيرا لنا ، ونسألك خشيتك في الغيب والشهادة، ونسألك كلمة الحق في الغضب والرضا، ونسألك القصد في الفقر والغنى، ونسألك نعيما لا ينفذ، ونسألك قرة عين لا تنقطع، ونسألك الرضى بعد القضاء، ونسالك برد العيش بعد الموت، ونسالك لذة النظر إلى وجهك، ونسالك الشوق الى لقائك، في غير ضراء مضرة، ولا فتنة مضلة.

اللهم زينا بزينة الإيمان، واجعلنا هداة مهتدين، اللهم زينا بزينة الإيمان، اجعلنا هداة مهتدين، اللهم زينا بزينة الإيمان، اجعلنا هداة مهتدين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

(1) سورة المائدة : 2

إعادة ترتيب العقل المسلم

للأستاذ عمر عبيد حسنة

الحمد لله ألذي بنعمته تتم الصالحات ، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة الله للعالمين ..... وبعد،

فمن الأمور التي أصبحت مسلمات ، أن العقل المسلم اليوم افتقد الكثير من فاعليته وتوهجه ومنهجيته وصوابه ، على الرغم من رصيده الحضاري ، وميراثه الثقافي ، وعقيدته الدافعة ، وتاريخه الفكري ، والتحديات الكبيرة من حوله التي تتمثل في الإنجازات العلمية المذهلة ومنها الأقمار الصناعية التي تجوب الأرض فتقدم مسحا شاملا لحركة البشر ورصدا كاملا لتصرفاتهم،وثورة المعلومات التي تساهم في استكناه أسرار الكون ، واستشراف آفاق المستقبل ، ووضع الخطط في محاولة للتحكم بالسنن والمسارات وتحديد النتائج مسبقا ، حيث لم يعد هناك مكان للأغبياء في عالم العقلاء والأذكياء .

والذي يحاول التعرف على موقع الأمة الإسلامية من خلال الخارطة الفكرية والثقافية والعلمية العالمية المعاصرة يصاب بكثير من الإحباط والحزن وحتى اليأس ، لولا الإيمان الذي يعصمه من ذلك ، ويضمن له الصمود والمحاولة أكثر من مرة لاستعادة الفاعلية وإعادة البناء . "إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون "سورة يوسف "الآية 87 ، فيستعيد إيمانه ، ويجدد وعيه بسنة التداول الحضاري والمدافعة البشرية :

"وتلك الأيام نداولها بين الناس " سورة آل عمران : 140 ، "ولولا دفاع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا" سورة الحج :38 ، فيعاوده الأمل في عملية النهوض ، والثقة بأن العمر والإنجاز الحضاري للأمة لا يقاس بعصر واحد من تقلب العصور ، ولا يجوز أن ينظر إليه ويحكم عليه من خلال الإصابات والأمراض التي تلحق بالأمة في فترات سقوطها ... وقد يكون من نعم الله على هذه الأمة ، أنه لم يسلط عليها عدوها تسليط استئصال وإلغاء ، وهي التي حملت الرسالة الخاتمة ، ونيطت بها القيادة الدينية للعالم ، وإنما هي عقوبات ومؤدبات على المعاصي الفكرية والسلوكية ، ومنبهات حضارية لاستعادة العافية والنهوض من جديد لاستئناف المهمة الرسالية .

لذلك فقد يكون المطلوب اليوم أكثر من أي وقت مضى ، من الذين يستشعرون التحدي ويدركون الواقع الذي صارت إليه الأمور من الانهدام الحضاري الذي لحق بالأمة ، ومسافة التخلف التي تتسع كل يوم والإستنقاع والركود الإجتماعي ، وتكريس ذلك ، وحمايته ، بضروب من الاستبداد السياسي ، أن يدركوا أن تجديد أمر هذا الدين مرتبط أولا وقبل كل شيء - بإعادة ترتيب العقل المسلم ، وتحديد مناهج التفكير ، وتنقية الموارد الثقافية ، وإصلاح عالم الافكار بعد أن اختلط الأمر ، واختلت النسب ، وافتقد التوازن المطلوب ، وبددت الجهود بما يفيد ومالا يفيد ، وأقيمت المعارك بعيدا عن مجالاتها الحقيقية ، وانسحب المسلم من الساحة ، ولم يعد يتقن حتى دور المتفرج الذي يدرك حركة الأشياء ويلمح مساراتها، ويسعد بنتائجها.

وقد تكون المشكلة من وجه آخر : انعدام الإحساس والوعي الحقيقي بحركة الحياة والأحياء ، والعيش على وهم العافية خارج إطار الزمان والمكان بعيدا عن معركة الحياة الحقيقية ، وتوهم العبقرية والتميز بالقيادة والريادة .. وهذا ، من الجهل المركب الذي يصاب به الإنسان عندما

لايعلم ، ولا يعلم أنه لايعلم ، فتنكسر الموازين ، وتختل النواميس ، وتختلط الأمور ، ويكرس التخلف ، ونسعد بالعجز ... وإذا حاول أحد المراجعة وتحديد مواطن القصور ، فما أسهل الإلقاء بالتبعة على الأسباب والعوامل الخارجية ... أما نحن فقد أدينا ما علينا بالتمام والكمال!

إن أية محاولة لإعادة ترتيب العقل المسلم اليوم ، وتأهيله لعملية التغيير ، وإعادة البناء والتشكيل ، لابد أن تأخذ باعتبارها :

أن التغيير إنما يبتدئ من داخل النفس : "إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم" سورة الرعد : 11 ،

وإعادة صياغة الشخصية المسلمة ، وتصويب مناهج التفكير، فالأزمة في حقيقتها أزمة فكر ، ولا بد لكل من يحاول العلاج من :

1 ـ التعرف الدقيق على حركة الأمة التاريخية ، وعوامل إنجازها الحضاري ، من خلال الظروف والملابسات الكثيرة ، سواء منها الداخلية أو الخارجية التي أحاطت بالحادثة التاريخية ومعرفة حجم التحدي ، والتبصر بطرائق المواجهة ، والتحقق بالدرس والعبرة .

ومن الأمور التي قد يكون من المفيد الإشارة إليها هنا أن الإسلام لم يرض للمسلم عند النظر إلى الحادثة التاريخية ، والتعرف على أسباب النهوض والانقراض في المسألة الحضارية ، أن يقتصر على التجربة التاريخية الإسلامية ، وإنما لابد أن يتجاوز ذلك إلى التاريخ العام للأمم ، والدراسة الميدانية لحركة التاريخ العام ، يقول تعالى : "قل سيروا في الأرض فانظروا ..." سورة الروم 41 .

2 ـ استقراء الحاضر من جميع جوانبه ، والتعرف على العوامل الأساسية والمؤثرة بهذا الواقع ، وعلى الأسباب التي أوجدت هذه النتائج والظروف المحيطة والإمكانات المتاحة.... ومن ثم تحديد موقع هذا الحاضر من حركة التاريخ والحضارة للأمة ، وتمييز أوجه التشابه والافتراق ، وإلى أي مدى يمكن الإفادة من الحركة التاريخية في تقويم الحاضر وتصويبه على ضوء تلك الرؤية التاريخية ... وبالقدر الذي نستطيع المداخلة مع هذا الحاضر ، وإعادة ترتيبه ، والتأثير فيه ، نكون قادرين على صناعة ملامح المستقبل الذي نريد .

3 ـ استشراف آفاق المستقبل على ضوء ذلك كله ، لأن الماضي والحاضر لا يخرجان عن أن يكونا المقدمة التي سوف تفتح المستقبل وتحدد ملامحه .... إذ لا لايمكن أن يكون المستقبل أمرا خارجا عن مقدماته القائمة ... والذين يحاولون إسقاط الماضي والحاضر من اعتبارات المستقبل ، إنما يسعون إلى تحقق السنن الخارقة بعيدا عن السنن الجارية ، ويريدون للذي يساهم بصنع المستقبل أن يكون بلا ذاكرة (الماضي) ، وبلا حواس (الحاضر) .... والعقل الذي يفتقد الحواس سوف يكون عاجزا عن الإدراك ، والحكم الصحيح على الأشياء ، واكتشاف مواطن الخلل والتقصير ، وامتلاك إمكانية التصويب .

إن استشراف آفاق المستقبل على ضوء الماضي والحاضر لم يعد ضربا من التخمين أو الرجم بالغيب ، أو من قبيل التنبؤات ، بل لقد دخل الموضوع في طور العلم الذي له إحصاءاته واحتمالاته وحساباته .

والحقيقة التي لابد من إضافتها هنا أيضا ، أن العالم اليوم أصبح دولة واحدة من حيث التأثير والتأثر ، وأن أي تجاهل لعوامل التأثير الخارجية في صورة المستقبل سوف تقلب النتائج رأسا على عقب ... فالدراسات والحسابات الإقليمية لم تعد وحدها قادرة على الإجابة عن صورة المستقبل المنشود بعد أن أصبح العالم دولة واحدة ، وأصبحت إرادة التحكم الدولي عاملا كبيرا في مشروعات التغيير بالقدر نفسه الذي يمنحه هذا العامل للعقل المسلم من القدرة على الإفادة من سنة المدافعة الدولية ويفتح له إمكانية التحرك .

ونحن بسبيل الكلام عن إعادة ترتيب العقل المسلم لا بد أن نعرض لقضية نعتقد أنها أساسية في هذا المجال

...فإذا عرفنا العقل بشكل عام بأنه تلك الملكة الفطرية في الإنسان الذي يستطيع بها أن يرتب محصول الحواس ، وأن يدرك ماوراءها من المعاني المجردة ، وأن يميز بطرق ومناهج معينة ما هو حق وماهو باطل ، كان لابد أن نوضح أن غياب ضوابط التفكير ، واختلاط مصادر المعرفة ، واختلال مناهج التفكير ، والخروج بالعقل عن ميدانه ، وتحكيمه فيما لا يمتلك مؤهلات الحكم فيه ، يؤدي إلى ضرب من التناقض والمفارقة وتمزق رقعة التفكير لدى الإنسان . فلابد للعقل من عواصم ، ولابد للتفكير من مناهج ، ولابد للأحكام العقلية من منطق . وفي اعتقادنا أن في مقدمة الأمور التي يجب التنبه لها ، والتي تشكل مفترق طريق بين العقل المسلم وغيره ، هي تحديد مصادر المعرفة أساسا ... فمن الأمور الثابتة عقلا وشرعا وواقعا أن مصادر المعرفة بالنسبة للمسلم تتمثل في أمرين :

1 ـ الوحي : وطريقه النبوة .

2 ـ العقل وطريقه الحواس .

ولاشك أن للمعرفة الواردة عن طريق الوحي وسائل وأدوات وشروطا لاختبار صحتها ، ونفي احتمال خطأ الذاكرة عنها،كما أن للمعرفة الواردة عن طريق العقل ، وسائل للفحص والاختبار لنفي خطأ الحواس أو صوابية مناهج التمييز وصحتها بين ما هو حق وما هو باطل .

وبطبيعة الحال فإن المعرفة الواردة عن طريق الوحي لا تلغي دور العقل ، وليست أمرا مناقضا له ، ذلك أن وسائل وشروط الاختبار لهذه المعرفة منوط بالعقل ، وأن العقل في نهاية المطاف هو وسيلة المعرفة بالنسبة للوحي ، وإدراكه ، والتدليل عليه . فهو أساس الإيمان ، ومناط التكليف . لكن تبقى المشكلة في عدم التمييز بين وسائل اختبار المعارف الواردة عن طريق الوحي ، ووسائل اختبار المعرفة الواردة عن طريق العقل ، والخلط بينهما ، واستعمال كل منهما في مجال الأخرى .

وقضية المعرفة الواردة عن طريق الوحي ، تشكل بالنسبة للعقل المسلم أساسا ووجودا ، وهي من الثوابت غير القابلة للتعديل والتبديل والتغيير ، وإنما يقتصر دور العقل إزاءها على الاجتهاد في فهمها وإدراك مقصدها ، ومجالات عملها ، وشمولها ؛ على عكس الفكر الوضعي حيث كل معارفه قابلة للمناقشة والإلغاء والإبقاء والتغيير والتبديل والتطوير...من هنا نقول بأن مناهج التفكير عند المسلم تتمحور حول هذه الثوابت لترسيخها والدفاع عنها ، والاجتهاد في إقناع الآخرين بها والدعوة لاعتناقها، ولذلك يبدو الفكر الإسلامي دفاعيا ، وحماسيا ، وتعبويا ، لأنه يتمحور حول ركائز لا يتطرق إليها الشك .... بينما الفكر الوضعي ، قد يمتلك من إمكانية الإلغاء والإبقاء والتغيير مدى أوسع لأن أصل القضية عنده قائمة أساسا على احتمال الصواب والخطأ ، **وإذا طرأ الاحتمال بطل الاسعدلال** كما هو معروف.

فلا يجوز ، والحال هذه ، أن تخضع معارف الفكر الإسلامي إلى نفس وسائل الفكر الوضعي ، اللهم إلا ماكان من معرفة واردة عن طريق العقل بعيدا عن ضوابط الوحي ، فهنا قد يستوي الأمران ، وإن كان الفكر الإسلامي يبقى متميزا بقيم ضابطة لمسار التفكير، والخلاف في مناهج التفكير قائم ومستمر بين أصحاب الفكر الوضعي العلماني ، والفكر الوحيي الإسلامي المستمد أو المنطلق من الوحي في : أصل المنطلقات ، والوسائل ، والنتائج ...يضاف إلى ذلك : قضية الإيمان بالغيب التي يمكن أن تتحدد معرفتها من طريق الوحي . ذلك أن محاولات الفلاسفة في هذه المسألة ، انتهت إلى صورة محزنة من الناحية العقلية البحتة.

ولم يعان الفكر الإسلامي من تلك الازدواجية العقلية بين المعارف الواردة عن طريق الوحي ـ والعقل وعاؤها ودليلها ـ والمعارف الواردة عن طريق العقل .. وهذا أمر يكاد يكون من البدهيات ، ذلك أن المصدر بالنسبة للوحي والعقل واحد فالذي خلق الإنسان أرسل له النبوة

وخصه بها "ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير" سورة الملك 14 ، بل لقد ألفت كتب في هذا الموضوع للتدليل على موافقة صحيح المعقول لصريح المنقول .

لقد استطاعت المعرفة الواردة عن طريق الوحي في الإسلام أن تصمد أمام تقدم العلم وتطور المعرفة ، ولم تسجل إصابة واحدة خلال خمسة عشر قرنا على معرفة الوحي ... فكل ماجاء به العلم إنما يفتح آفاقا إضافية لفهم معرفة الوحي ، فهو يؤكدها ولا يصطدم بها .. ولانأتي بجديد إذا قلنا بأن مشكلة التناقض هذه دخيلة على الفكر الإسلامي ، وأن الذين سقطوا في مناخها ، آفتهم أنهم لم يتعرفوا إلى مناهج التفكير عند المسلمين ، وكانوا ضحايا الميراث الحضاري غير الإسلامي .. ذلك أن النص الديني المعمول به قبل الإسلام ، لم يستطع الصمود أمام معارف العقل والتقدم العلمي ، لذلك حكم على النص الديني بمجموعه أنه مناقض للعقل والعلم ... ولم يبق مجال لعلماء اللاهوت إلا الارتكاز على الغيبيات البعيدة عن متناول العقل لإثبات وجودهم ، حيث جعلوا الغيب ومعارف الدين مقابلة للعقل والعلم ، وأصبح أكثر الناس تدينا ، أكثرهم استسلاما وإلغاء لعقله.

ولابد من الاعتراف بأن هذا المناخ العقلي ، أصاب بعض المسلمين بشكل أو بآخر ، لأسباب عدة لايتسع المجال لذكرها هنا ، وفاتهم أن من مهمة النص الديني الإسلامي بيان مواطن التحريف والتبديل في النص الديني قبل الإسلام ، يقول تعالى : "وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ، ومهيمنا عليه" سورة المائدة : 50... ويقول حكاية عن الأمم السابقة : "يحرفون الكلم من بعد مواضعه " سورة المائدة 43 فالمشكلة أن النص الديني المعمول به قبل الإسلام ، هو في الحقيقة نص وضعي تدعى له القداسة ، ويحتمل من الخطأ ما تحتمله أية معرفة عقلية .

وعلى الرغم من أن الإسلام اعتمد العقل دليل الوحي ، وقدم حضارة لم تمكن هزيمتها على مستوى الواقع والتاريخ ، من الناحية العقلية والعلمية ، مع ذلك هناك محاولات جديدة تحت اسم العلمانية والعقلية يخادع بها بعض المسلمين لمعاملة النص الديني في الإسلام كشأنه في الأديان السابقة ، وفي أحسن الأحوال تبذل محاولات مقنعة للالتفاف على النص ومحاصرته بضروب من الاجتهاد الجديد وادعاء إعمال روح النص لتحقيق مصالح الناس . ولاشك أن مصالح الناس ، لا يمكن ـ عقلا ـ أن تتجاهل في النص الخالد المجرد عن حدود الزمان والمكان إذا آمنا بأن الإسلام هو الرسالة الخاتمة الخالدة : "ماكان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين " سورة الأحزاب :40"

ومما يلفت النظر هنا أن أصحاب هذه الدعاوى "علمنة المسلمين باسم الإسلام" يركزون في كثير من اجتهاداتهم وتفسيراتهم ، على خلافة سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، لمحاصرة النص والالتفاف عليه ، ومن ثم لتوقيفه وإلغائه ... ويتخذون من اجتهاده ـ رضي الله عنه ـ وسيلة إيضاح لما يريدون .

ولعل الذي يقوي عندي هذا المقصد أن الذين يرتكزون على هذه الفترة دون غيرها من تاريخ الفكر والاجتهاد في الإسلام ، يغيبون كل مواقف سيدنا عمر ـ رضي الله عنه ـ واجتهاداته وإنجازاته للقضية الإسلامية ، ومواقفه الحاسمة في الذود عن الإسلام ، وتراجعه عن الكثير من اجتهاداته عندما يظهر له النص،إضافة إلى أن بعض اجتهاداته التي ارتكزوا إليها هي في حقيقتها إعمال للنص وفهم له وليس تعطيلا أو تجاوزا له، إنهم يحاولون تقطيع الصورة وتبعيضها والقيام بعملية الانتقاء للاستدلال لما يريدون .

وعلى الرغم من أنه لايجوز التنقيب عن النوايا ، فأمرها إلى الله ، لكن المؤشرات تدل على أن القناعات المسبقة هي التي حملتهم إلى هذا الانتقاء ، وذلك الإسقاط ... هذا بالنسبة للشريعة ، أما بالنسبة للعقيدة ، فقضية الإيمان بالغيب ، لابد أن تطرد من العقل الحديث

. بمختلف الوسائل عندهم .

ـ وإن كانت وسائلهم في العالم الإسلامي اليوم تختلف عنها في غيره ...إنهم يمارسون كثيرا من النفاق الاجتماعي الذي لابد منه للمرور إلى العقل الإسلامي علما بأن العقل العلمي المدعى لم يستطع التجرد عن الاهتمام بالغيب ، فآمن بصورة من الشعوذة والتخاريف والأباطيل التي لا تسمن ولاتغني من جوع .

نعود إلى القول : بأن العقل المسلم اليوم ، افتقد الكثير من فاعليته ، وتوهجه ، وصوابيته ، ولحقت به مجموعة إصابات شكلت له بعض الرضوض والكسور والبعثرة والتمزق والخلل ، مما يجعل ضرورة التوجه إليه ، وإعادة ترتيبه وبنائه ، ووضع المناهج الدقيقة والصارمة للتفكير الإسلامي ، في مقدمة الأولويات .

ويمكن أن نعرض لبعض الإصابات التي لحقت بالعقل المسلم على سبيل الإجمال ، لعلها تكون مستقبلا محل درس وبحث وتحرير ، يستعيد بعدها العقل الإسلامي عافيته ، إن شاء الله .

ويعاود المسلم استئناف دوره ـ بعد أن يكتشف نفسه ـ مستثمرا طاقاته جميعا ، وقادرا على التخطيط لها ووضعها في المكان المجدي والموقع الفاعل ، على ضوء رؤية دقيقة لسنن الله التي تحكم الحياة والأحياء ، ووعي كامل بحركة التاريخ ...

وهذه بعض الإصابات :

1 ـ عدم التمييز في القبول والرد ووسائل اختبار الصواب والخطأ بدقة ، بين معارف الوحي ومعارف العقل .

2 ـ الإستغراق في بحث الأمور الغيبية ، وتجاوز المساحة التي وردت فيها النصوص الصحيحة عن طريق الوحي ، ومحاولة إدخال العقل في غير مجاله ، على حساب الكثير من القضايا الحياتية في علم الشهادة التي نيط بالعقل التفكير فيها وإنجازها .

3 ـ العدول في التعامل عن السنن الجارية وقوانين التسخير ، الى السنن الخارقة وانتظار المنقذ القادم من الغيب ليعالج التخلف والتأخر والتمزق ، ويملأ الأرض عدلا بعد أن ملئت جورا وظلما ، وفي هذا ما فيه من مجافاة للعقل المسلم وللإنجاز الحضاري في عصر النبوة ، فترة القدوة ... لكنها إفرازات مناخ التخلف ، واجتهادات عضر التخلف .

4 ـ تعطيل قانون السببية ، علما بأنه من أقوى الأدلة التي تبرهن على وجود خالق الكون ، والله سبحانه يقول حكاية عن ذي القرنين الذي حقق تفوقا وإنجازا وتمكنا في الأرض بعد أن ألهمه الله معرفة الأسباب ، فاتبعها : "وآتيناه من كل شيء سببا . فاتبع سببا " الكهف : 84 85"

ومشكلة العقل المسلم اليوم ، فقدان التوازن في هذه القضية ، فهو يتردد بين موقفين : بين تأليه الأسباب ، وبين تعطيلها ... والجدل النظري حول هذا الموضوع ، أضاع الكثير من الإنجاز، وفقدت الكثير من فرص التصويب والمراجعة واكتشاف الخطأ ومعالجته وترتب عن ذلك الخلط بين التوكل على الله الذي يعني فعل المقدمات كاملة وتعاطي الأسباب ، ثم الإتكال على الله في إدراك النتائج ـ وذلك تعامل مع السنن وقوانين التسخير كما شرعها الله لعباده ـ وبين التواكل الذي يعني القعود عن فعل المقدمات وتعاطي الأسباب ، وانتظار النتائج والخوارق.

5 ـ عدم التحديد الشرعي الدقيق لمفهوم البدعة ، وأنها منحصرة في الاستحداث لأمور في الدين ليست فيه وإعطائها صفة القداسة ، وترتيب الثواب على فعلها ، والعقاب على تركها ـ أي الإضافات الدينية في العبادات والتشريعات والأخلاق بعد أن أكمل الله الدين والتداخل بين هذا المفهوم وبين مفهوم الإبداع في المجال الحياتي والحضاري الذي يعني قدرة الإسلام على الاستجابة لمتغيرات العصر بعد المحافظة على الثوابت الدينية ،

وقدرة العقل المسلم على العطاء المستمر ، إذ لا يمكن تجميد المجتمع على صورة واحدة في حركته التاريخية ، وأن الإبداع في العلوم والفنون والصناعات من مهام العقل المستهدي بالقيم الدينية.أما ان نرمي كل جديد بأنه بدعة فهذا ليس من الفقه والدين في شيء.

6 ـ القصد إلى مسالك التشدد والحرج والإنذار في أمر الدين والتكليف الشرعي ، وتغليبها على أخلاق اليسر والسماحة والسهولة والبشارة والرخص ... والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : "بشروا ولاتنفروا "

7 ـ عدم القدرة على التمييز بين الغزو الثقافي والتبادل المعرفي . وهذا الحاجز من تخوف الغزو الثقافي حرم العقل المسلم الكثير من المعارف وارتياد الآفاق التي تمكنه من اختصار فجوة التخلف ، والمساهمة في التغيير الحضاري " والحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها فهو أحق بها" .

8 ـ عدم الإدراك الكامل لمفهوم الفروض الكفائية ، وعلاقتها بالاكتفاء الذاتي للأمة ، والمعاصي الدينية التي تترتب على عدم القيام بها ، والعدول عن الكثير من التخصصات والأعمال المطلوبة للأمة تحت شتى المعاذير... وقد تستنكر بعض العقول اليوم عدم الإتيان بمندوب أو مستحب ، ويقيم الدنيا ولا يقعدها بسبب ذلك ، أما ضرورة التخصص بمستلزمات العصر من العلم والتقنية لحماية المجتمع ورقيه وفك السيطرة الأجنبية التي تتحكم به ، فهذه قضية لاتخطر له على بال ..إنه يقاتل من أجل مندوب ، ولايدرك أهمية المفروض .ومن اغرّب ما يسمع الإنسان ان بعض العقول الاسلامية تقرأ الامر بابجدية مغلوطة، وهي : ان الله سخر لنا الأجانب ليكونوا في خدمتنا في الصناعات والزراعات، ونحن عباد الله نتمتع بها ، ونعيش مستهلكين لها!

9 ـ عدم الاقتناع بجدوى النقد والمراجعة والتصويب والاعتبار بالتجارب السابقة ، واكتشاف السقطات والحفر والإخفاقات ، ودراسة أسبابها ، وأخذ الدرس والعبرة منها للمستقبل . استجابة لحديث الرسول صلى الله عليه وسلم "لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين"، ومحاولة الهروب من المسؤولية عن الفعل ، والإلقاء بالتبعة على العوامل الخارجية ، فإن أعيتنا الحيلة ، كان القدر هو المسؤول عن هزائمنا ..أما بالنسبة لنا فقد أدينا واجبنا كاملا تحت شعار : ليس بالإمكان أفضل مما كان، وبذلك لا نزال نراوح في مكاننا ، ونكرر اخطاءنا ، والله سبحانه لم يرد لنا الاعتبار بتاريخنا الخاص فحسب، «قل هو من عند انفسكم» "آل عمران 165" وانما طلب الينا أيضا تحقيق العبرة من التاريخ العام للأمم «قل سيروا في الارض فانظروا ... » الروم : 41"

10 ـ التردد بين ذهان السهولة ـ وذلك بتبسيط الأمور ومن ثم الإقدام على فعلها دون روية ودراسة وفهم ، وعدم التقدير الدقيق للإمكانات المتاحة والظروف المحيطة ، ودون تخطيط مسبق ، والإقدام بشكل أعمى ـ ، وبين ذهان الإستحالة ـ وذلك بالنظر إلى الأمور ، والظن باستحالتها ، وعدم القدرة على التعامل معها ، وتجاوز الحقائق في ذلك إلى الأوهام الموقعة بالعجز واختلاط الممكن بالمستحيل ، والإنسحاب من الساحة نتيجة رؤية عليلة تؤدي إلى اليأس وتوقع في العطالة .

11 ـ الهروب إلى الماضي ، وعدم العودة منه للتعامل مع الحاضر والنظر إلى المستقبل..والعجيب اللافت للنظر أن المسلم اليوم ، على الرغم من شدة تمسكه بتراثه ، واعتزازه بإنجازاته الحضارية والتاريخية ، نراه عاجزا عن تعدية الرؤية وحسن الإدراك والوعي لحركة التاريخ التي جعلت منها بعض العقائد قوانين صارمة تحكم الحاضر ، وتتنبئ بالمستقبل . أما نحن فدخلنا التاريخ ولم نستطع الخروج منه ، مما يدل على أن اعتزازنا بالتراث ، وافتخارنا بالتاريخ ، هو أقرب للانحياز العاطفي منه إلى امتلاك أهلية إدراك حركة التاريخ . ولا أعتقد أن إنسانا ما ، مدركا للتاريخ تماما ، يبقى بعيدا عن الحاضر ورؤية

المستقبل ..وإذا كان للماضي من فائدة ، فلأنه ينير الطريق ، الى معرفة الحاضر ورؤية المستقبل .. أما الماضي فلا يمكن استعادته، والعيش فيه بحال من الأحوال إلا إذا سيطرت علينا أحلام اليقظة . لذلك أرى أن المسلمين اليوم يعيشون تحدي الماضي لعدم قدرتهم على استيعابه والإفادة منه وتحدي الحاضر الذي لا يستطيعون اللحاق به.

12 تعطيل الحوار الذي يفتح الآفاق ، ويساهم برعاية القابليات ، ويشحذ الفاعلية ، ويحقق الإبداع .. فالقرآن عرض للعقائد السابقة وناقشها من أكثر من وجه، وفي أكثرمن موقع، وطرح أكثر من احتمال ..فإذا كان الحوار مع الخصوم قائما ، فما بال العقل المسلم اليوم يغلق منافذ الحوار حتى مع القائمين على الأمر الواحد ، المستهمين في السفينة الواحدة ؟ ! علما بأن عصمة عموم الأمة لاتتأتى إلا بفتح باب الحوار والنقاش والنقد والمناصحة والشورى حيث لاعصمة بعد النبوة إلالعموم الأمة ؟؟.

13 ـ عدم استشراف آفاق المستقبل على ضوء الماضي والحاضر ، وفهم الحركة التاريخية ، ومراقبة مجراها ، ومن ثم مصبها مستقبلا .. وأعتقد أنه لا يجوز الهروب من النظر إلى المستقبل تحت عنوان : "المستقبل بيد الله " .. فالماضي ، والحاضر ، والمستقبل كلها بيد الله.. والرسول صلى الله عليه وسلم كان يرسل سرايا الاستطلاع ليتعرف على أعدائه ، ويعد العدة لاستقبالهم في المعركة ، وكان ينظر في عدد ما يذبحون ويأكلون ليقدر عددهم ويستعد للقائهم ..

فتعطيل النظر إلى المستقبل بعد أن أصبحت له دراساته وعلومه تحت شتى الاعتذارات ، ليس من هذا الدين بل هو إصابة للعقل ومجافاة للدين ، خاصة وأن الإسلام مد الحياة إلى ما وراء عالم الدنيا حيث يتوقف الناس ليدخل بهم عن طريق الوحي إلى عالم الغيب .. فالمستقبل في تصورنا الإسلامي أبعد مدى .

14 ـ التراجع إلى مواقع الفكر الدفاعي مما جعل الخصوم وأعداء الدين يتحكمون بالنشاط العقلي للمسلم بإثارة المشكلات والقضايا والاتهامات ، وبذلك افتقد العقل الأصالة والإبداع ، واتسم بالعاطفية والحماس ، ووقع في دائرة التحكم التي رسمها الخصوم .

15 ـ التوقف عن الاجتهاد والمضي في بناء المجتمع والإنجاز الحضاري ، والاكتفاء بالتقليد تحت شعار : " ماترك السابقون للاحقين شيئا " ، وذلك يعني ـ فيما يعني ـ انقطاع الخير في هذه الأمة ، وعدم صلاحية الإسلام للأزمنة الحاضرة والمستقبلة وبذلك يتحقق لأعداء الإسلام ما أرادوا من أن الإسلام كان لفترات ماضية ولا يصلح لصناعة الحاضر واستشراق المستقبل .

16 ـ العجزعن النظرة الكلية للأمور، وإدراك المقاصد العامة للشريعة ، والوقوع في الجزئية وعدم القدرة على التحقق بالسنن التي تحكم الحياة وترى الأولويات المطلوبة ، وتستطيع تحديد الموقع الفاعل والتحرك المناسب من خلال سنن المدافعة التي شرعها الله لحماية القيم التي أنزلها .

وبعد فسوف لايتسع المجال هنا ، لو حاولنا استقصاء الإصابات التي لحقت بالعقل المسلم ، والتي تقتضي أهمية البدء بمعالجته وتصويبه وإعادة ترتيبه .. وقد تقتضي كل إصابة بحثا كاملا في أسبابها ونتائجها وطرائق معالجتها .

وحسبنا هنا ، هذه الملامح العامة لعلها تثير اهتمام الباحثين والدارسين فيعكفوا عليها دراسة وبحثا حيث لابد من العودة للعكوف على الذات لتقويمها وتغييرها ، والاعتكاف حول قضايا الفكر الإسلامي والنظر المستمر في أزمته فإذا سلمت مناهج التفكير ، فقد سلمت الأمة من السقوط .. وإذا أصيب عالم الأفكار فلا قيمة لكل الأشياء الأخرى لأنها تصبح صورة لا حقيقة لها .

مقالة مختارة

التصور الإسلامي للإنسان كأساس لفلسفة الإسلام التربوية

الدكتور جعفر شيخ إدريس
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

مقدمة

من الحقائق التي عرفها وقال بها كثير من المفكرين المعاصرين أن كل نظرية سياسية أو اقتصادية أو تربوية بل كل رأي في تنظيم جانب من حياة الإنسان ، يكمن وراءه تصور معين للإنسان قد يعيه صاحب الرأي أو النظرية فيقول به وقد يفترضه ولا يشعر به .

ولذلك فإن النظر في الإنسان ومحاولة الوصول له يطابق حقيقته ينبغي ـ من الناحية المنطقية ـ أن يسبق كل محاولة للنظر في المبادئ الإقتصادية أو النظم السياسية أو المناهج التربوية لأن معيار هذه المبادئ والنظم والمناهج هو مدى صلاحيتها للإنسان ولا يمكن أن نعرف مدى صلاحيتها له إلا إذا عرفنا أولا من هو .

إننا إذا لم نتبين هذا الامر ونكون على وعى به فقد نضع مناهج تعليمية ونعتمد طرقا تربوية نحسبها اسلامية وما هي باسلامية لأن الإنسان الذي نفرضه ليس هو الإنسان الذي بين لنا خالقه حقيقته وقد ننقل عن غيرنا مناهج وطرقا لا نرى بأسا في نقلها من أن النظر إليها من خلال هذا التصور قد يكشف عن خللها وقصورها ظانين أن كل ما قالوا به صالح لنا مع أن وزنه بمعيار التصور الصحيح للإنسان قد يثبت عدم صلاحيته .

هذه بالطبع ليست دعوة الى ايقاف كل جهد لاصلاح التعليم وتقريبه من هدى الإسلام حتى يتم الاتفاق على هذا الأمر ولكنها مجرد تذكير بأهمية الموضوع ودعوة للمهتمين بشؤون التعليم أن يولوه عنايتهم ويحاولوا اكتشاف الصلة بينه وبين فروع المسائل التي تشغل بالهم .

ثلاث نظريات من طبيعة الإنسان :

من هو الإنسان ؟

أهنالك شيء اسمه الانسان بهذا الاطلاق الذي لا يؤثر فيه أو يغيره زمان ولا مكان ولا جنس ولا لون ولا لغة ولابيئة ولا ثقافة ؟

انقسم المجيبون على هذا السؤال إلى ثلاث فرق كبرى:

1) فمنهم من أثار وجود انسان بهذا الإطلاق ورأى أن الإنسان حين يولد يولد محايدا كالصفحة البيضاء أو الطينة غير المشكلة وأن البيئة هي التي تكتب عليها ما تريد وتشكله كيف تريد .

2) ومنهم من قال بلى.أن للإنسان حقيقة، وحقيقته أنه مخلوق شرير يولد الشر معه مفروضا في طبعه والبيئة هي التي تحاول أن تهذبه .

3) وفريق ثالث وافق الفريق الثاني على أن للإنسان حقيقة ثابتة ، ولكنه قال إن حقيقته أنه مخلوق خير يولد حين يولد على الخير ثم قد يطرأ عليه التغيير بعد ذلك وقد يستمر خيرا وينمى الخير الكامن في نفسه .

وبكل نظرية من هذه النظريات قال مفكرون كبار وعلى كل منها قامت مذاهب حياة جذبت إليها عددا هائلا من البشر، وكان لكل منها آثاره البعيدة والخطيرة في السياسة والاقتصاد والعلاقات الاجتماعية والفلسفات التربوية .

فأي نظرة منها هي النظرة الصائبة المطابقة لواقع

الإنسان وكيف نعرف ذلك ؟

هذا ما سنحاوله في الجزء الأول من هذا البحث وفي الجزء الثاني منه نثبت أن النظرة التي قلنا أنها صائبة هي النظرة الإسلامية وفي الجزء الثالث نحاول بيان شيء من آثار هذه النظرة على فلسفتنا التربوية .

مناقشة هذه النظريات .

يحسن قبل الدخول في مناقشة هذه الإجابات على سؤالنا أن نبين بشيء من التفضيل ما المقصود بالسؤال نفسه .

من هو الإنسان؟

هذا سؤال عن طبيعة الإنسان عن الخصائص التي تشكل في مجموعها هذا الكائن المتميز الذي نسميه الإنسان .

والسؤال عن طبيعة الانسان سؤال :

1) عن طبيعته الجسدية : ما هو التركيب الجسدي للإنسان ؟ وماهي القوانين التي تحكم هذا التركيب وما الذي يناسب هذا التركيب من أنواع المآكل والمشارب والبيئات والعلاقات ؟

2) وعن طبيعته النفسية : ماهو التركيب النفسي للإنسان وما الذي يناسب هذا التركيب من القيم والأفكار والأحوال .

3) وعن الصلة بين الطبيعتين : والذي يهمنا بشكل أساسي في هذا البحث هو الطبيعة النفسية فهل للإنسان تركيب نفسي معين كما أن له تركيبا جسديا معينا ، بحيث أن أي خلل فيه يسبب له أمراضا نفسية كما أن الخلل في تركيبه الجسدي يؤدي إلى علل جسمانية ؟ وإن كان له تركيب فما هو ؟

نظرية الحياد :

فالنظرة الحيادية لا تنكر أن للانسان تركيبا جسديا معينا وانما هي خاصة بتركيبه النفسي وهي أما أن تقول :

أولا :

أن الاسنسان لا تركيب نفسي له حين يولد وانما البيئة الثقافية والبيئة الحسية هي التي تصنع وتبني من لاشيء شخصيته .

وإذا صحت هذه النظرة فإن مثل الإنسان يكون كمثل الطين الذي يصنع منه الأطفال اشكالا مختلفة من الناس والحيوانات والطيور والمنازل.

ولكن اذا لم يكن في طبيعة الطين ما يحدد نوع الاشكال التي يصنع منه، فكذلك ينبغي أن لا يكون في طبيعة الإنسان ما يحدد الصورة النفسية المناسبة له أي أن طبيعة الإنسان لا تصلح معيارا نقيس به صلاح البيئة أو فسادها وأن هذه البيئة بيئة المناهج التربوية والنظم السياسية والاوضاع الاقتصادية هي التي تصنع هذه الطبيعة الإنسانية وتشكلها . وهذا يعني أنه بمقياس الطبيعة الإنسانية فان أي منهج وأي نظام وأي وضع هو مماثل لأي منهج أو نظام أو وضع آخر .

ولكن اذا لم تكن طبيعة الانسان هي المعيار الذي نقيس به صلاح هذه النظم أو فسادها فبماذا نقيسها ؟

لست أعرف أحدا من القائلين بفكرة الحياد هذه يقبل هذه النتيجة التي "تستلزمها نظريته فانك لا تكاد تجد واحدا منهم الا وهو ينتقد بعض النظم الاقتصادية أو العلاقات الانسانية أوالنظم السياسية ... الخ على أساس انها تمسخ الانسان وتشوهه أو أنها لا تناسب طبيعته ...

فكارل ماركس مثلا يقول في مكان انه ليس للانسان طبيعة ثابتة وما الانسان إلا مجموعة علاقاته الاجتماعية والعلاقات الاجتماعية متغيرة ولكنه في مكان آخر يتهم الرأسمالية بأنها شوهت حقيقة الإنسان وجعلته شبيها بالحيوان ولعله لم يفطن الى أن هذا القول الاخير يناقض الاول لأن القول الأول ينكر أن تكون للإنسان طبيعة ثابتة والقول الثاني يفترض وجود هذه الطبيعة ويعتبرها طبيعة خيرة .

وإما أن تقول :

ثانيا :

ان للإنسان تركيبا نفسيا معينا ، ولكنه تركيب محايد بالنسبة للخير والشر وانه يميل إلى هذا أو ذاك بعد أن يولد إما بإرادته الخاصة أو بسبب عوامل خارجية ولكن هذا معناه انه ليس في تركيبه النفسي ما يجعل الخير ملائما له أو الشر مناقضا له ، وهذا معناه أن ما

نسميه خيرا كالصدق والاخلاص والشكر وحب الحقيقة ليس خيرا بالنسبة لنفسه وكذلك ما نسميه شرا ليس كذلك بالنسبة لها . فكيف اذن يقنع نفسه بأن ذاك خير ينبغي أن يفعل وهذا شر ينبغي أن يترك ؟ ما هو المعيار؟

ان الحياد بهذا المعنى يجعل النفس الانسانية كالالة فالسكين مثلا لا يؤثر فيها فواكه قطعت بها أو احشاء بريء مزقت بها . انها معدة لان تقطع فحسب . وكذلك النفس الانسانية معدة لان يفعل بها الخير أو يفعل بها الشر ولا تأثير لأحد الفعلين عليها هي . فهل هذا هو الواقع؟

كلا فإن نفس الانسان يشقيها ويعذبها الكذب والنفاق والاستكبار والبخل والهوان ويسعدها الصدق والإخلاص والتواضع والجود والعزة .

ثم لو كانت نفس الإنسان محايدة لم يكن هنالك معنى لعبارات الأمراض النفسية والصحة النفسية .

نظرية أصالة الشر :

وأما النظرة التي تقول باصالة الشر في النفس الإنسانية فإن الاشكالات عليها أعظم وانفصالها عنها أعسر إن لم نقل أنه مستحيل .

ما معنى إن نقول إن الإنسان في أصله شرير ؟

إما أن نقول إن للنفس الانسانية تركيبا معينا وأن الشر هو مادة هذا التركيب ولحمته وسداه.

ولكن يلزم عن هذا أن يرتاح الإنسان نفسيا حين يفعل الشر ويشقى حين يفعل الخير لأن الراحة النفسية انما هي أن تكون أقوال الإنسان وأفعاله مناسبة لطبيعته .

أو نقول إن معناه أن الإنسان يولد حين يولد والشر لاصق بنفسه لصوق الدرن بجسم الإنسان وإنه ان ترك من غير تهذيب بقي هذا الدرن في نفسه وازداد ولكن ان تعهدناه وتعهد نفسه بالتربية والتزكية . انجلى عن نفسه هذا الشر الذي صاحبها منذ ميلادها .

ولكن هذا المعنى يفترض أن الانسان في أصله خير وان الشر أمر طارئ عليه ولاصق بنفسه من الخارج، كل الذي يقوله إن هذا الشر لا يطرأ على النفس بعد الميلاد ولكن قبله وهو قول لاداعي له ولا دليل عليه .

لاداعي له لان الفرض الاقرب ان نقول إن الأمر الطارئ يحدث بعد الميلاد . فكما أن العلل الجسمية تحدث في الغالب الاعم بعد خروج الانسان الى الحياة فكذلك العلل النفسية .

ولا دليل عليه لأنه لوكان الانسان يولد والشر لاصق به لكانت أيام الصبا من أشقى أيام الانسان واتعسها وأكثرها امراضا نفسية ولكن الواقع غير ذلك .

والقول باصالة الشر هو قول المسيحية التي تعتقد أن كل انسان يولد وارثا لخطيئة آدم .

ولكن هذه العقيدة المسيحية ـ شأن كثير من العقائد المسيحية الأخرى ـ أخذت أشكالا غير دينية وتزيّت بزي العلم والأدب والفن فصارت أكثر خطرا على المسلمين فأنت تجدها في صورة نظرية فرويد التي ترى أن الجنس هو الدافع الرئيسي لكل أفعال الإنسان بما في ذلك حبه لوالديه وعبادته لربه .

وصورة نظرية ماركس التي ترى أن البحث عن الطعام هو الذي يسير تاريخ الإنسان عن طريق تحسين وسائل الإنتاج وصورة القصص والشعر والفن الذي يجعل الإنسان الشرير هو الإنسان الطبيعي والإنسان الخير إنسان منافق يظهر غير ما يبطن أو متكلف يحاول السير ضد تيار طبيعته .

نظرية أصالة الخير :

1) نخلص من كل هذا إلى أن الرأي الصواب هو الرأي الثالث القائل بأن الإنسان ذو فطرة خيرة وأن الشر أمر طارىء عليه ومجاف لفطرته . هذا هو الرأي الموافق للواقع الذي نعرفه ، والمؤدي إلى نتائج مقبولة وهو الأمر الذي يقول به الدين الحق كما سنبين بعد.

أن يولد الإنسان خيرا هو الأمر الذي تقتضيه رحمة الله تعالى وفضله وحكمته . تقتضيه رحمته لأن الرحمن هو الذي يعطي الخير ابتداء كرما منه وفضلا ثم يجازي على الإحسان إحسانا فبفضل الله ورحمته خلق الإنسان في أحسن تقويم وخلق له كل ما يناسب طبيعته ويفي بحاجاته من أرض وسماء وليل ونهار وحيوان ونبات .

إن الذي خلق الجسم الإنساني حين خلقه سويا معتدلا وخلق له كل ما يناسبه من غذاء وكساء وهواء وضياء لحري بأن يخلق النفس الإنسانية سوية : ويسهل لها كل ما يناسب استواءها الفطري هذا ويكمله من آيات كونية وحجج عقلية وهداية سماوية .

وهو الأمر الذي يناسب حكمته لأن الحكيم لا يصنع شيئا لغاية ما ثم يجعل طبعه غير ملائم لتلك الغاية أو غير مهيأ لبلوغها . والله سبحانه وتعالى خلق الإنسان ليعبده "وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون" فكيف يخلق له نفسا شريرة لا تناسبها العبادة أو نفسا محايدة بين الخير والشر لا يضيرها أطريق عبادته سلكت أم سلكت طريق التمرد عليه ، كلا من عادة الله تعالى في خلقه كله أن يخلقه سويا وأن يهدي كل مخلوق إلى ما قدر له أن يخلقه "الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى" .

الفطرة في القرآن وفي السنة :

في القرآن الكريم وفي السنة النبوية نصوص تدل على هذا المعنى دلالة صريحة وأخرى تدل عليه بطريق اللزوم وفيما يلي نذكر جانبا من النوعين مع تعليقات موجزة .

إن الله سبحانه وتعالى إنما خلق الناس لعبادته وأرسل لهم رسلا منهم ليبينوا لهم الطريق المستقيم إلى هذه الغاية، ولكن هذا الدين الذي جاء به الرسل من عند الله ليس شيئا غريبا على الإنسان بل أن أصله مغروس في نفسه :

1) هذا الأصل هو المشار إليه بالفطرة في قوله تعالى "فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون"(الروم : 30).

فالإنسان حين يسدد وجهه للدين الذي شرعه الله تعالى ويستمر عليه كما يأمره ربه تعالى إنما يلزم فطرته السليمة "التي فطر الله الخلق عليها فإنه تعالى فطر خلقه على معرفته وتوحيده وأنه لا اله غيره" . فالدين الإسلامي هو إذن الدين الطبيعي الذي لا يولد إنسان إلا به ولذلك قال تعالى : (لا تبديل لخلق الله) ، ومعناه أنه تعالى ساوى بين خلقه كلهم في الفطرة على الجبلة المستقيمة ، لا يولد أحد إلا على ذلك ولا تفاوت بين الناس في ذلك . ولهذا قال ابن عباس وجماعة من السلف "لا تبديل لخلق الله" . أي لدين الله .

2) وهو المشار إليه بالنور في قوله تعالى :

"الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم" . (النور : 35).

قال ابن القيم "قال أبي بن كعب : مثل نوره في قلب المسلم ، وهذا هو النور الذي أودعه الله في قلب عبده من معرفته ومحبته والإيمان به وذكره وهو نوره الذي أنزله إليهم فأحياهم به وجعلهم يمشون به في الناس وأصله في قلوبهم..." (1) وقال "قلبه مضيء يكاد يعرف الحق بفطرته وعقله ولكن لامادة له من نفسه فجاءت مادة الوحي فباشرت قلبه وخالطت بشاشته فازداد نورا بالوحي على نوره الذي فطره الله تعالى عليه فاجتمع له نور الوحي إلى نور الفطرة نور على نور فيكاد ينطق بالحق وإن لم يسمع فيه أثرا ، ثم يسمع الأثر مطابقا لما شهدت به فطرته فيكون نورا على نور"(2).

3) وهو المشار إليه بالتسوية في قوله تعالى "ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها" (الشمس : 7 ـ 10) .

قال ابن كثير في تفسيره "ونفس وماسواها" أي خلقها سوية مستقيمة على الفطرة القويمة كما قال تعالى "فاقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله" (الروم : 30).

4) ولعل هذا الأصل هو المصرح به في قوله تعالى (ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء توتي أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون . ومثل

كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار)
(ابراهيم : 24 ـ 26) .

فالكلمة الطيبة كما جاء في تفسير السلف هي كلمة التوحيد فهي كشجرة طيبة اصلها ثابت في قلب المؤمن وأكلها هو الأعمال الصالحة الناتجة عنها الصاعدة الى السماء المقبولة عند الله تعالى .

وأما الكلمة الخبيثة المضادة لكلمة التوحيد فلا أصل لها ولا قرار ولا ثمرة زاكية .

5) وهو المشار اليه بالاشهاد في قوله تعالى :

"وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم وأشهد هم على أنفسهم الست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين أو تقولوا انما أشرك أباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون . وكذلك نفصل الآيات ولعلهم يرجعون"
(الأعراف : 172 ـ 174) .

قال الحافظ ابن كثير في تفسيره" ومن ثم قال القائلون من السلف والخلف إن الرأي بهذا المراد قال : "وإذا أخذ ربك من بني آدم "ولم يقل من آدم" من ظهورهم ولم يقل من ظهره"ذرياتهم" أي جعل نسلهم جيلا بعد جيل وقرنا بعد قرن . ثم قال "واشهدهم على انفسهم الست بربكم قالوا بلى أي أوجدهم شاهدين بذلك ، قائلين له حالا ومقالا ... فدل على أنه على الفطرة التي فطروا عليها من الاقرار بالتوحيد ولهذا قال "أن يقولوا" أي لئلا يقولوا يوم القيامة" أنا كنا عن هذا أي التوحيد" غافلين" ...

وفي السنة المطهرة عدة أحاديث فيها مزيد بيان لما قرره القرآن من فطر الانسان على الخير .

6) ففي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "كل مولود يولد على الفطرة ـ وفي رواية على هذه الملة ـ فابواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها جدعاء ؟".

ففي هذا الحديث دلالة على أن الفطرة التي يولد عليها الإنسان هي السلامة من الشرور كما أن الحال التي تولد عليها البهيمة هي السلامة من العيوب الجسمانية من قطع أنف واذن وشفة وغيرها فكذلك الحال التي يولد عليها الطفل هي السلامة من العيوب النفسية والاعتقادية من يهودية ونصرانية ومجوسية وكما أن تلك العيوب تطرأ على البهيمة بعد ميلادها فكذلك هذه العيوب تطرأ على الإنسان بعد ميلاده .

والدليل على أن الفطرة المقصودة في هذا الحديث ليست السلامة بمعنى الحياد بل بمعنى وجود الخير في النفس. إنه صلى الله عليه وسلم قال فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه ولم يقل ويجعلانه مسلما لأن الاسلام هو الأمر الطبيعي وكل هذه العقائد . انحرافات عنه وهذا المعنى جاء مصرحا به في الرواية الأخرى للحديث "كل مولود يولد على هذه الملة ..."

7) ويزيد هذه المعنى تأييدا وقوة ماجاء في صحيح مسلم عن عياش بن حماد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "يقول الله :إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم" .

8) وكذلك ما جاء في جزء من حديث رواه الإمام أحمد وأخرجه النسائي في سننه عن الاسود بن سريع من بني سعد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "الا إنها ليست نسمة تولد الا ولدت على الفطرة فما تزال عليها حتى يبين عنها لسانها فأبواها يهودانها وينصرانها" .

وأما الايات والاحاديث التي تدل بطريق اللزوم على أن الانسان مفطور على الخير فأكثر من أن تحصى في بحث كهذا .

ان الكلمات المعبر بها عن الشر تدل كلها تقريبا على أن الشر ليس شيئا أصيلا وإنما هو انحراف عن الخير وتغيير وتبديل له مع أن الكلمات المعبر بها عن الخير ليس فيها مايدل على أنه نقيض الشر وانما في الكثير منها ما يدل على الزيادة والانماء والمحافظة على خير اصيل .

من ذلك قوله تعالى في الآيات التي ذكرناها سابقا : ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد افلح من زكاها وقد خاب من دساها" .

فبالاضافة إلى كلمة (سواها) التي تدل دلالة صريحة على اصالة الخير في الانسان "فإن كلمات "الفجور" والتقوى "والتزكية والدس" أيضا تستلزم هذه النتيجة .

فالفجور هو الافساد والعدول والميل عن الامر الطبيعي ، والتقوى من الوقاية والتزكية تعنى النمو كما تعنى التنظيف والتنقية ، والدس يعنى الاخفاء والدفن . فالذي يفجر ويفسد ، والذي ـ يحمى ويحافظ عليه ، والذي يزكو وينمو والذي يدس فيمنع من النمو ، انما هو الشيء الصالح السوى المستقيم .(4)

وهذا هو الذي تستلزمه كلمات الفساد ، والفسق والكفر والالحاد والزيغ والظلم والضلال وكثير من الكلمات الدالة على الشر . وكثير من كلمات الايمان والذكر والشكر واليقين والطمأنينه والاستقامة وكثير من الكلمات الدالة على الخير.

فالذي يفسد الامر السليم والفسق خروج عن شيء سابق ، والكفر تغطية واخفاء لشيء موجود ، والالحاد والزيغ انحراف، والظلم وضع الشيء في غير موضعه، والضلال عدم الاهتداء الى الغاية المرجوة.

والايمان تصديق بحق يضفي على النفس أمنا ، والذكر انما يكون لأمر كان في الاصل معروفا والشكر اعتراف بفضل أسدي .

ان في الكلمات الدالة على الخير معاني الثبوت والاستقرار والاصالة والايجابية، وأما الكلمات الدالة على الشر ففيها معاني النفي والتغيير والسلبية وما ذلك الا لان الخير هو الاساس وأن الشر انما هو نفي الخير.

هذا الذي يبدو لي على وجه العموم ولست أزعم انني استقصيت كل الكلمات فوجدتها متدرجة تحت هذه القاعدة.

لقد وجدت في بعض الكلمات الدالة على الخير معنى السلبية ثم تأملتها فإذا هي لا تخرج على القاعدة بل تؤكدها فالاصلاح انما يكون للشيء الفاسد والتوبة والأوبة رجوع عن شر . فهل يعني هذا أن الفساد والشر هما الأصل ؟

كلا، فالاصلاح ازالة للفساد وعودة الى الأمر الطبيعي، والتوبة والأوبة رجوع من طريق الشر الىالطريق الطبيعي الطريق.

ان في القرآن الكريم والسنة المطهرة ـ الى جانب تلك الكلمات ما يدل بطريق اللزوم على أن نفس الانسان كجسمه حالها الطبيعية ان تكون سليمة معافاة وان ما يطرأ عليها مما ينفي تلك الفطرة الأولى هو أمراض كالامراض التي تصيب الابدان وكما ان الصحة البدنية تكون في المحافظة على الحال الطبيعي وفي وقايته من اسباب الامراض وفي معالجة البدن حين يصيبه المرض فكذلك صحة القلوب وسلامتها . ومهمةالدين هي المحافظة على هذه السلامة ووقايتها من الأمراض وعلاجها حين تمرض .

حين اراد منكرو الرسالة المحمدية أن يعتذروا عن انكارهم بأن قلوبهم في أكنة وانها مغلفة غلافا فطريا يحول دون نفاذ كلامه صلى الله عليه وسلم اليها رد عليهم القرآن بأن الغلاف ليس سببا في الكفر وانما هو نتيجة له" وقالو قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم فقليلا ما يؤمنون" . (البقرة : 88)

"وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا اليه"

"وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون الا قليلا" (النساء " 155)

والقرآن الكريم يسمى الشر مرضا يطرأ على القلوب "فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض" الاحزاب:(32)

"ليجعل مايلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض" (الحج : 53)

وبعض هذا المرض مما يمكن علاجه وأحسن علاج له آيات القرآن الكريم، وبعضه يستحكم بحيث يمنع وصول هذه الايات الى القلب فما يزيده العلاج إلا مرضا.

" وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين الا خسارا" (الاسراء : 82)

"واذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه

ايمانا فأما الذين آمنوا فزادتهم ايمانا وهم يستبشرون وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون."(التوبة : 125)

والنبي صلى الله عليه وسلم يشبه ما يطرأ على القلوب مما ينافي فطرتها بالصدأ الذي يصيب الحديد والدرن الذي يعلق بالابدان والدنس الذي يلصق ببيض الثياب .

كما أن القرآن يسمى الذنوب رانا يتراكم على القلوب فيحجبها عن رؤية الحقيقة .

الخير الذي فطر عليه الانسان

ماهو هذا الخير الذي فطر عليه الإنسان ؟

يؤخذ من مجموعة النصوص التي اوردناها سابقا أن جوهر هذا الخير يتمثل في :

1) السلامة من العيوب "كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء".

2) الاعتراف بعبودية الانسان لخالق واحد "فطرة الله التي فطر الناس عليها "كل مولود يولد على هذه الملة"

ولكن هذا الجوهر ترتبط به أنواع أخرى من الخير الفطري تدل عليها نصوص أخرى دلالة صريحة تارة وضمنية تارة أخرى .

3) أصول القيم الاخلاقية فالله تعالى فطر الإنسان على أن الشكر خير وهو محمود ، والجحود شر مذموم وكذلك قل في العدل والجور والامانة والخيانة والاعتراف بالحق وانكاره .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ان الامانة نزلت في جذر قلوب الرجال ثم علموا من القرآن ومن السنة" فهذا دليل صريح على أن الناس مفطرون على الأمانة.

ويقول الله تعالى

"هل جزاء الإحسان إلا الاحسان ؟"

ويقول :

"افنجعل المسلمين كالمجرمين مالكم كيف تحكمون"

فهاتان الايتان لا تعلمان الانسان ان جزاء الاحسان ينبغي أن يكون احسانا أو أن مصير المحسن ينبغي أن لايكون كمصير المسيء وانما هما تفترضان ان الانسان يعلم هذا، ولهذا تستنكران عليه أن يحكم بغير هذا الذي يعرفه ؟

4) ما يسمى بالقوانين العقلية كالعلم بأن الاشياء لا تأتي من العدم وأن الشيء لا يخلق نفسه وأن الكلام المتناقض باطل.

وفي هذا يقول الله تعالى :

"أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون؟

ويقو " ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا".

5) القيم الجمالية كحب الجمال والنظامة والنظام .. الى جانب هذا الخير المحض الذي فطر الله تعالى عليه الانسان فإنه منحه قوى هي في ذاتها خير، لكننا يمكن أن ننحرف بها فنجعلها شرا .

من ذلك :

1) القدرة على العمل .

2) القدرة على التفكير .

واشارة الى هذين يقول الرسول صلى الله عليه وسلم" اصدق الاسماء حارث وهمام" أي أن هذه اسماء تدل دلالة صادقة على حقيقة الانسان فهو حارث عامل وهو همام مفكر .

3) القدرة على الاختيار.

"فمن شاء فليؤ من ومن شاء فليكفر".

4) السعي لحفظ النفس والنوع بالاكل والشرب والسكن واللباس والنكاح .

اذا كان الانسان مفطورا على الخير فلماذا اذن يفعل الشر؟

هذه احدى الشبهات بل لعلها اقوى الشبهات التي يشغب بها على القول باصالة الخير في النفس الانسانية وهي شبهة تجذب كثيرا من الناس وتدعوهم الى الأخذ بنظرية الحياد .

ولعل اساس هذه الشبهة هو التصور الخاطئ لمفهوم الفطرة . فعبارة الانسان مفطور على الخير تعني عند هؤلاء انه مطبوع على ارادته وفعله طبعا لا ينفك عنه ولكن الواقع انه ينفك عنه واذن فهو ليس مفطورا عليه، بل انما يولد محايدا ان شاء فعل الخير وأن شاء تركه وفعل

الشر .

ولكن الفطرة لا تدل على هذا المعنى الذي - يجعلها متناقضة مع المشيئة الانسانية والذي يسوي بين فعل الخير وحركات النباتات والجمادات التي لاارادة لها .

فطره الانسان على الخير معناها كما قلنا سابقا :

أ) أن الله تعالى صاغ الانسان وكونه وركبه بحيث لا يصلح له الا الخير .

ب) وانه تعالى تفضل بجعل المعرفة بهذه الحقيقة امرا مستقرا في نفس الانسان لا يحتاج لان يتعلمه من الخارج وان كان العلم الخارجي يزيده قوة .

ولكن الله تعالى جعل الانسان مخلوقا ذا ارادة ان شاء سار في طريق الخير الذي تدله عليه فطرته وان شاء تمرد على فطرته كما يتمرد على الدلائل العقلية والايات الكونية والرسالات السماوية .

ان الله تعالى يتفضل فيعرف الانسان بالخير ويبينه له ويدعوه اليه دعوة تأتيه من داخل نفسه ومن دلائل عقله ومن الايات الكونية ومن الرسالات السماوية ولكنه يتركه بعد ذلك حرا ان شاء قبل هذه الدعوة شاكرا وان ساء ردها كافرا .

وفي معنى هذا البيان الفطري يقول الله تعالى :

"إنا هديناه السبيل اما شاكرا واما كفروا "الانسان : 3) .

"ونفس وما سواها فالهمها فجورها وتقواها قد افلح من زكاها وقد خاب من دساها " الشمس : 10 ـ 7)

فلسفة التربية الإسلامية :

الاهداف :

من هذا التصور للانسان يمكن ان نستخرج أهداف التعليم والقواعد العامة التي تحكم وسائله وأساليبه ومناهجه .

فغاية التربية والتعليم هي تمكين الانسان من أن يكون انسانا حقيقيا أو تمكينه من أن يكون عبدا لله صالحا لأن العبودية هي جوهر الانسانية والانسان كلما ارتقى سلم العبودية ارتقى في سلم الانسانية ولهذا فإن الله سبحانه وتعالى وصف رسوله صلى الله عليه وسلم بالعبودية في أشرف أحواله كما تنبه الى ذلك كثير من العلماء من ذلك قوله تعالى بمناسبة الاسراء " سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى) . وقوله تعالى بمناسبة الدعوة (انه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا) .

فوصف الانسان بالعبودية هو الوصف الجوهري العام الذي يحتم كل اوصافه، واذن فكل فهم لصفة من صفات الانسان أو خاصة من خواصه يجعلها مناقضة لصفة العبودية فهو فهم خاطئ .

وهو الوصف الاساسي وكل الاوصاف الأخرى بالنسبة له ثانوية ولذلك فينبغي أن لا يقدم واحد منها عليه .

وبهذه المناسبة أحب أن أشير إلى صفتين تفهمان أحيانا فهما يخرج على هذه القاعدة .

الأولى وصف الإنسان بأنه مخلوق روحي استدلالا بقوله تعالى : (ونفخت فيه من روحي) فالوصف صحيح والاستدلال صحيح ولكن فهم الروحية هذه بأنها عنصر الهي حل في الانسان هوالفهم الخاطئ خطأ شنيعا ينافي العبودية والتوحيد ويجعل الاسلام كما تنبه الى ذلك بعض العلماء اسوأ من المسيحية فالمسيحية قصرت الالوهية - بعد الله تعالى - على بشر واحد وهذا الفهم يعممها فيجعل في كل انسان عنصرا الهيا ان قول الله تعالى: (من روحي) لايعني ان شيئا من ذاته تعالى خرج فحل في الانسان فالله تعالى: صمد لا يخرج من ذاته شيء، وهو احد، ليس كمثله شيء وهو مفارق وعال على كل شيء، ان اضافة الروح الى الله تعالى ليست اضافة بعض الى كل، كما تقول (يد الله) و(وجه الله) وإنما هي اضافة مملوك الى مالكه كما تقول ارض الله وسماؤه .

وكما أن الانسان ليس روحا الهية بهذا المعنى فان المسيح عيسى بن مريم ليس كلمة الله بمعنى انه خلق وصيغ من الكلمة.ان الكلمة ليست عنصره وانما هي سببه كما انها سبب كل مخلوق سواه : (انما أمره اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون) . (يس : 82)

وكما يقول الامام احمد فإن عيسى ليس هو الـ (كن) لكن بالـ (كن) كان واما الصفة الاخرى فهي صفة الخلافة

استدلالا بقوله تعالى : (انى جاعل في الارض خليفة) .

ولاشك أن الانسان خليفة ولكن من الخطأ أن تقدم صفة الخلافة علي صفة العبودية كما يميل الى ذلك كثير من فضلاء كتابنا المعاصرين .

ومن الخطأ أن يظن بأن تفسير الخلافة بأنها خلافة عن الله في تعمير الارض هو التفسير الوحيد أو المتفق عليه بين العلماء اذ الواقع أن بعضهم أنكر هذه العبارة وحجتهم في انكارها قوية قالوا إن عبارة "خليفة الله لم ترد في قرآن ولا سنة بل روي أن ابابكر انكر على من وصفه بخليفة الله وقال انه خليفة رسول الله وقالوا إن الخليفة في اللغة هو الذي يخلف غيره اذا غاب والله تعالى لا يغيب وقالوا انه مما يؤيد هذا انه جاء في بعض الادعية النبوية وصف الله تعالى بالخليفة فهو الذي يخلف المسافر في أهله وولده كما يصحبه في سفره .

وعلى كل فإن الأمر لا يكون خطيرا إذا فسرت الخلافة بمعنى الحكم أو بمعنى أن كثيرا من المخلوقات مسخرة للانسان ولكن بعض الكتاب يغلو في تفسير الخلافة حتى ليكاد يشعرك لأن الله تعالى قد تخلى عن تصريف جزء من الكون وترك أمره للإنسان ... تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

المراجع :

1) التفسير القيم ـ ط ـ بيروت ص 372

2) نفس المصدر ص 374.

3) من مقال للكاتب بمجلة الغرباء (لندن) العدد الثالث ، نوفمبر ـ ديسمبر 1973 م.

"لقد اتفق اعظم علماء التربية في العهد الحاضر على أن عملية التربية في أمة وبلاد ليست بضاعة تصدر إلى الخارج، أو تستورد إلى الداخل، كالمصنوعات أو المواد الخام، أو الحاجيات والمخترعات التي لا تختص ببلد دون بلد، انما هو لباس يفصل على قامة هذه الشعوب وملامحها القومية، وتقاليدها الموروثة، وآدابها المفضلة، واهدافها التي تعيش لها، وتموت في سبيلها ، وأن التربية ليست الا وسيلة راقية مهذبة لدعم العقيدة التي يؤمن بها شعب أو بلد، وتغذيتها بالاقتناع الفكري القائم على الثقة والاعتزاز، وتسليحها بالدلائل العملية إذا احتيج إليها، ووسيلة كريمة لتخليد هذه العقيدة، ونقلها سليمة إلى الأجيال القادمة، وان افضل تفسير لنظام التربية هي أنها السعي الحثيث المتواصل، يقوم به الآباء والمربون لإنشاء أبنائهم على الإيمان بالعقيدة التي يؤمنون بها، والنظرة التي ينظرون بها إلى الحياة والكون، وتربيتهم تربية تمكنهم من أن يكونوا ورثة صالحين للتراث الذي ورثه هؤلاء الآباء عن أجدادهم، مع الصلاحية الكافية للتقدم والتوسع في هذه الثروة".

نحو التربية الإسلامية الحرة

لأبي الحسن الندوي

مؤسسة الرسالة

ص 137 ـ 138

منبر الجمعة

المحن وأثرها في تربية الرجال

للأستاذ محمد ابياط

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا.

من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله ، أرسله بالحق بشيرا ونذيرا بين يدي الساعة.

من يطع الله تعالى ورسوله فقد رشد ، ومن يعص الله تعالى ورسوله فإنه لا يضر إلا نفسه ولا يضر الله تعالى شيئا.

إن أصدق الحديث كتاب الله تعالى ، وخير الهدي هدي سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار.

عباد الله

إن المحن والمصائب ملازمة لحياة الناس ، لا يخلو منها عصر ، ولا ينجو منها قوم ، فهي من سنن الله الجارية على الكافر والمومن ، وعلى الحاكم والمحكوم.

إلا أن منها ما يجيء مؤدبا زاجرا ، ومنبها رادعا ، قال تعالى : "وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون"

ومنها ما يأتي على وجه الاختبار والامتحان ، لتقام الحجة على الناس. قال تعالى :

"ونبلوكم بالشر والخير فتنة ، وإلينا ترجعون".

وقال سبحانه : "ألم. أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون. ولقد فتنا الذين من قبلهم ، فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين"

ومنها ما يرد على وجه العقاب والانتقام ، وذلك عند الاستمرار في الفسق والعصيان بعد الإعذار والتحذير. قال عز وجل :"كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون". وقال :"فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم"

عباد الله :

إن الا بتلاءات والمصائب هي أنجح مدرسة ، وأكبر درس للأكياس الفطناء :

فهي تكشف عن طاقات التحمل والصبر ، والثبات والمواجهة ، وتعين على تحديد مواضيع الخطإ في التفكير والتخطيط والتنفيذ. وتميز المواقف : مواقف التأييد والمشاركة ، ومواقف العداء والمناوأة ، ومواقف الخذلان والمنافقة ، سواء كانت هذه المواقف فردية أو جماعية ، سلمية أو حربية.

إن العقلاء هم الذين يستفيدون من المحن والمصائب ، حيث تحملهم على مراجعة الاحوال ، وتصحيح الأخطاء وسد الثغرات.

إن الأكياس لا تذيبهم المحن ولو عظمت ، ولاترخيهم المصائب ولو كثرت ، ولا تيئسهم الضربات ولو توالت ، لأنهم لا يفقدون صوابهم ، ولا تضطرب تصرفاتهم ، بل يتحكمون في أعصابهم ، ويظهرون الجلد والصبر ، وهم يختارون أنسب المواقف لكل المفاجئات.

فهذا عبد الملك بن مروان وصله في يوم واحد ثلاثة أمور ، واحد منها يكفي أن تنهار به الأعصاب لدى ضعفاء العزيمة والجأش. بلغه قتل ولده الذي كان قائدا للجيش في إحدى الجبهات. وبلغه توغل جيش الكفر داخل بعض الأقاليم الإسلامية ، شمال الإمبراطورية ، وبلغه خروج بعض القبائل عن طاعته ، وثورتهم على

ولاته.

فتلطف أولا في إخبار أم ولده المقتول حتى هدأ روعها ، وجعلها تسترجع ، وتحتسب وتصبر. وبهذا كسب طمأنة البيت والأسرة ألصق الأمور به. ثم بعث الجيش إلى الخارجين عليه من قومه ، فطفأ ثورتهم وأعادهم إلى طاعته. وبهذا صارت كلمة الأمة موحدة ، فسار بجيشه نحو الأعداء في قوة وثبات، لأنه ليس هناك من يخذله أو يفتنه أو يوزع اهتمامه وجنده في الداخل.

عباد الله :

إن المحنة تأتي في صور متعددة ، وفي أوقات مختلفة ، وهي إما أن تصيب الإنسان في جسمه أو ماله ، أو من يحيط به ، وغالب ما يبتلى المومن في الشيء الذي يحبه ويؤثره ، فتكون المحنة اختبارا لمدى استعداده للتضحية بذلك الشيء ، في سبيل معتقداته ومبادئه.

وقد ذكر العلماء أن التربية النظرية وحدها لا تكون ذات قيمة تغييرية في الواقع الموبوء ، وإذا لم تتدخل عوامل الابتلاء والشدائد ، لتمحيص الإيمان والتحدي ، خاصة ، وأن النفس البشرية ميالة إلى السلامة ، وتجنب الشدائد والصعاب

فهذه السنة الإلاهية ، أجريت على رجال تشبتوا بالحق ، فصهرتهم الابتلاءات ، وصنعت منهم رجالا خلد التاريخ ذكرهم فعاشوا ليموتوا شهداء الحق ، وماتوا ليبقى ذكرهم في العالمين.

لكن المومن يتأدب مع ربه ، فلا يتمنى الابتلاء ولا مواجهة النكبات ، بل يسأل ربه العافية في الدين والدنيا والآخرة ، فإذا ما ابتلاه ربه رجاه الصبر والثبات والرضى.

اللهم إنا نسألك العفو والعافية ، في الدين والدنيا والآخرة.

ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا واغفر لنا ربنا ، إنك أنت العزيز الحكيم. آمين والحمد لله رب العالمي

الحمد لله كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه. والصلاة على نبي الرحمة والهدى وعلى آله الأطهار وصحابته الأخيار

وبعد :

إن موت العلماء من أعظم المحن ، وأكبر المصائب ، لأن العلماء العاملين المخلصين كالمصابيح في البيوت والدروب ، كلما مات عالم انطفأ مصباحه ، فأظلم مكانه. وكلما غاب عالم ، فتحت ثغرة في خط المواجهة مع الجهل والشيطان ، قلما تسد تلك الثغرة.

وإن من علامات غضب الله على الناس أن ينزع منهم العلم وذلك بقبض العلماء.

أخرج البخاري ومسلم والترمذي عن عبد الله بن عمرو ابن العاص رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :"إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من الناس (أي محوا من الصدور). وفي رواية من العباد ، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء. حتى إذا لم يبق عالما ، اتخذ الناس رؤوسا جهالا ، فسئلوا ، فأفتوا بغير علم ، فضلوا وأضلوا."

ومعنى قبض العلماء هنا هو موتهم.

وقد يكون هناك قبض آخر للعلماء دون موت لأبدانهم ، بل بإماتة ضمائرهم وإسكات ألسنتهم ، بدءا بالعطاءات والمنح والهدايا ، فإن لم تفلح هذه الوسائل في قبضهم فبالاتهامات والحملات ، والتشويهات والرزايا.

وقد أشار إلى ذلك الإمام الجليل أحمد بن حنبل. حيث قال عن المامون والمهدي العباسيين : كلاهما كاد يقتلني : المامون بضربه وإرغامه على القول بخلق القرآن وذلك كفر. والمهدي باطلاق سراحه والمبالغة في إكرامه وتقريبه ، وهذا أيضا قبض للسان العالم ، عن قول كلمة الحق في وجه من يحسن إليه ما ديا غير أن الامام أحمد ، كان قوالا للحق في حال السراء والضراء رضي الله عنه.

وإسكات العلماء أو قبضهم لا يكون فقط من جهة الحكام ؛ بل يكون كذلك بسبب الجهلاء الذين يتمسكون بالبدع والخرافات ، والعادات التي تلائم أهواءهم ، ولا تعاكس ما استحسنوه وتعودوا عليه. وخاصة إذا كان هؤلاء الجهلاء ذوي مراتب اجتماعية ، أو وظائف

استغلالية ،أو أساليب تمويهية وتضليلية. فهؤلاء وأمثالهم ممن ألفوا العيش في الماء العكر ، والسير في الدروب المظلمة ، يزعجهم نور العلم. فيواجهون العلماء والدعاة وحاملي مشاعل التحرر والهداية ، يواجهونهم بكل ما أوتوا من مكر ودهاء بل طالما لفقوا دعاوى باطلة وأشهدوا عليها أنفسهم وأتباعهم وأسندوها لمن يغيظهم من العلماء فيسكت العالم أو يقبض أو يهان ، وهم يتغامزون بينهم ، وقد يكون ذلك سببا لحزن العالم وتألمه ، فيمرض ثم يموت حقا بفعل الظلم والزور ، وقد كان صلى الله عليه وسلم يمرض ويأسف إذا دعا قومه إلى النور، فقابلوه بالسخرية والإعراض والأذى.

قال تعالى :"فلعلك باخع نفسك -أي هالك نفسك- على آثارهم إن لم يومنوا بهذا الحديث أسفا"

وقد يسكت بعض العلماء عند ما يغلب عليهم اليأس ، لانهم يرون العامة انشغلت عنهم ، وأعرضت عن مجالستهم وأقوالهم. وتوغلت في الدنيويات ، لا تبالي بحلال ولا حرام ، ولا فاسد ولاصحيح ، ولا يلتجئ أحدهم إلى عالم يسأله إلا إذا كانت المسألة متعلقة بإثبات مصلحة مادية ، أو تحصيلها بحيث يرجو منه إيجاد فتوى مناسبة كي لا يحرم من كذا وكذا ، أو لا يغضب فلانا أو فلان ، قلما يحرص الناس على معرفة تفاصيل النظام الذي جاء به الاسلام لحياة الفرد ، منذ ولادته ، بل من اختيار أمه إلى أن يودع في قبره.

ومما يؤلم أن بعض العلماء يغضون الطرف ويسايرون الجمهور التائه الغافل ، بدعوى اتقاء الفتنة. والمحافظة على وحدة الصف ، ودرءا للخلافات والنزاعات.. ويا حبذا لو كان هذا التغاضي والسكوت على حساب الدنيا ، فيكون من المداراة المستحبة شرعا.

أما أن يسكت العالم أو يحضر ويشارك في المواقف الباطلة ، فإن ذلك هو عين الفتنة ، بل أخبث فتنة لأنه إذا لم يكن مكرها ، اعتبر موقفه ذلك تزكية للباطل ، يكتسب منه المبتدعة والمضلون حجة يستدلون بها على مشروعية بهتانهم وافتراءاتهم ، وبذلك ينتشر الجهل ، ويقوى الباطل ، ويخفت نور الحق وينزوي العلماء . فإذا مضى عهد بذلك ، ثم قام عالم يستنكر ما عليه الناس ، ويذكرهم بالعقيدة الصحيحة والعبادات الكاملة والمعاملات الطيبة التي جهلوها ، قاموا في وجهه مستغربين منكرين ، مدعين أنهم على حق ، وأنه هو يريد أن يفسد دينهم وأن يظهر في الارض الفساد ! . فهل نبذل أنفسنا وأموالنا لنحمي عقيدتنا وإيماننا أو نتخلى عن إيماننا وعقيدتنا لتسلم أجسامنا وأموالنا ، فأي فتنة أشد ؟

اللهم قنا شر الفتن والمحن ، وقدنا إليك على نور الآيات والسنن ، إلى أن نلقاك وأنت راض عنا. وصل اللهم وسلم وبارك على سيدنا محمد النبي الامين ، وعلى آله الطيبين الطاهرين . وارض اللهم عن الخلفاء الراشدين ابتلوا فصبروا وأنعم الله عليهم فشكروا بالقول والعمل. وعن الصحابة المخلصين وعن التابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين...

"أغبى الناس من ضل في آخر سفره، وقد قارب المنزل. العقول المؤيدة بالتوفيق ترى أن ما جاء به الرسول هو الحق الموافق للعقل والحكمة، والعقول المضروبة بالخذلان ترى المعارضة بين العقل والنقل، وبين الحكمة والشرع. اقرب الوسائل الى الله ملازمة السنة، والوقوف معها في الظاهر والباطن، ودوام الافتقار الى الله وارادة وجهه وحده بالاقوال والأفعال، وما وصل احد إلى الله الا من هذه الثلاثة، وما انقطع عنه احد الا بانقطاعه عنها أو عن احدها.

الأصول التي انبنى عليها سعادة العبد ثلاثة، ولكل واحد منها ضد، فمن فقد ذلك الأصل حصل على ضده: التوحيد وضده الشرك، والسنة وضدها البدعة، والطاعة وضدها المعصية، ولهذه الثلاثة ضد واحد وهو خلو القلب من الرغبة في الله وفيما عنده، ومن الرهبة منه ومما عنده" .

الفوائد، لابن قيم الجوزية
دار الفكر. ص 108

الأمة وقضية التقنية

للدكتور توفيق بن أحمد القصير
الحلقة الثانية

4 ـ متطلبات نقل التقنية وحيازتها

إن التحول التقني للدول النامية لا يمكن أن يتم بمجرد استيراد منتجات تقنية متطورة. ومما يدعم هذه المقولة هو الازدياد المضطرد بالفجوة التقنية بين معظم الدول النامية والدول المتقدمة ، ذلك بالرغم من التدفق المستمر للسلع ذات التقنيات المتطورة إلى أسواق الدول النامية خلال نصف القرن الأخير. ولهذا فإن حيازة وإستيعاب التقنيات المتطورة تقتضي تحقيق بعض الشروط الأساسية ، التي على الدول النامية ، والذي يمثل العالم الإسلامي جزءا منها ، أن تأخذ بها بجدية وحزم .

ولعل من أهم هذه المتطلبات :

4 ـ1ـ وعي القيادات السياسية لأهمية العلم والتقنية

تؤكد جميع التجارب القديمة والمعاصرة ، على أن وعي القيادات السياسية لأهمية العلم والتقنية في تحقيق التنمية الشاملة للأمة ، يعتبر العامل الأساسي في تحريك عجلة التحول التقني لهذه الأمة . إن توفير معظم المتطلبات الأساسية الأخرى للتحول التقني تعتمد على توفر هذا الوعي الذي تصاحبه الإرادة السياسية الحرة . إن بدايات التقدم التقني الذي وصلته اليابان ، مثلا ، كان مستندا على وعي قيادتها السياسية لأهمية العلم والتقنية حيث أكد إمبراطور اليابان ذلك بقوله يجب البحث عن المعرفة وحيازتها من أي مصدر كان وبكل الوسائل المتاحة لدينا لصالح عظمة اليابان وأمنه . (4)

إن وجود هذا الوعي ينعكس من خلال الاهتمام بالجوانب الرئيسية التالية :

أ ـ السعي لتطوير الكفاءات العلمية والتقنية الوطنية القادرة على استيعاب وتطوير التقنيات العالية . حيث أن هذا يعتبر شرطا مسبقا لأية محاولة للتقدم العلمي والتطور التقني . إن نسبة العلماء والتقنيين إلى مجمل عدد السكان في أية أمة يمثل أحد أبرز المؤشرات على المستوى العلمي والتقني لهذه الأمة والجدول . 1ـ يعكس هذه العلاقة . كما يوضح هذا الجدول مقدار الفجوة الواسعة بين الدول المتقدمة والدول النامية التي تتضمن العالم الإسلامي من حيث توفر العلماء والتقنيين.

جدول ـ1ـ عدد العلماء والتقنيين لكل مليون نسمة في بعض الدول والتجمعات (1) .

البلد	العلماء التقنيين
بنغلاديس	20
الدول النامية	100
مصر	190
الكتلة الغربية	4300
الكتلة الشرقية	8200

وهذا بدوره يبين مقدار الجهود الواجب بذلها لسد هذه الفجوة ، وتحقيق الحد الأدنى لمتطلبات التحول التقني في العالم الإسلامي .

ب ـ تبني سياسات واضحة بخصوص التقدم العلمي والتقني ، وإصدار التشريعات المناسبة لتحقيق ذلك ، وهذا

يتضمن تحديد الأهداف القريبة والبعيدة المدى وتبني السياسات التي تؤدي إلى تحقيقها . كما يتضمن الاهتمام بتطوير العلم والتقنية ضمن خطط التنمية الشاملة وتهيئة المتطلبات العملية لهذا التطوير .

جـ - توفير متطلبات الاستقرار السياسي والأمن الاجتماعي . فبدون الاستقرار السياسي لا يمكن لخطط التنمية أن تجد طريقها للتنفيذ . كما أن الطبيعة البعيدة المدى للتقدم العلمي والتطور التقني ، تقتضي مرور فترة زمنية طويلة نسبيا قبل قطف ثمار هذه الخطط ، وهذا لا يمكن أن يتحقق دون تمتع الأمة بالاستقرار السياسي الذي يوفر فرصة التخطيط الهادي والمتابعة الدؤوبة لحلقات التطور المترابطة .

4 ـ 2 ـ السياسات العلمية والتقنية

لا أمل في تحقيق التقدم العلمي والتطور التقني دون سياسات علمية تقنية واضحة ومحددة . فتجارب الأمم المتقدمة تقنيا والدول التي خرجت من طوق التخلف العلمي والتقني ، تعطينا أدلة دامغة على ضرورة هذا الأمر وفاعليته في وصول الأمة لأهدافها . إن أهم عناصر هذه السياسات تتمثل في الآتي :

أ - إنشاء جهة مركزية لتطوير سياسات نقل وحيازة التقنية والإشراف على تنفيذها .

بحيث تكون هذه الجهة مرتبطة إداريا بأعلى سلطة سياسية في البلد لإعطائها الدعم والصلاحيات اللازمة لتأدية واجباتها بفاعلية وقد كان لمثل هذه الجهة دورا رئيسيا في نجاح التطور التقني بدول عدة في أمريكا الجنوبية وجنوب شرق آسيا (5)

ب - وضع خطط محددة لنقل التقنيات المتطورة وتوفير متطلبات نجاحها

وهذا يقتضي تحديد التقنيات المطلوب حيازتها ، ووضع البرامج العملية لتحقيق هذا لهدف . فعلى سبيل المثال فإن التنمية التقنية لصناعة البتروكيماويات في البرازيل جاءت نتيجة لإستراتيجية مدروسة تم تنفيذها من خلال مشروعات استثمارية متعاقبة، كانت تهدف إلى بناء قدرات وطنية لاستيعاب التقنيات المتعلقة بهذه الصناعة، وصاحب ذلك جهود ضخمة من أجل بناء هذه القدرة (3)) وبذلت كوريا جهدا مماثلا من أجل الحصول على المستوى الثالث من نقل التقنيات الخاصة بصناعة البتروكيماويات . وعلى سبيل المثال فإنه في إحدى الحالات تم النص في العقد المبرم مع الشركة الأجنبية الموردة للتنقية " .....يجب تدريب مهندسين كوريين بواسطة داو DOW (مورد التقنية) على تطبيق كل الجوانب الخاصة بالتكنولوجيا ، وتشمل التصميم الأساسي للعمليات ، والتصميم التفصيلي للمعدات ، والتفاصيل الخاصة بتدبير وإقامة وإختبار وبدء التشغيل، وتشغيل وصيانة المعدات ، وتدريبهم كذلك على التقنيات المستخدمة من أجل كفالة تطوير أي تكنولوجيا للبتروكيماويات .

أما في حالة شركة بوهانغ(Pohqng) للحديد والصلب في كوريا ، فقد كان مطلوبا من مورد التقنية أن يوفر تدريب المهندسين والمتخصصين في تشييد مصانع الصلب الجديدة ، وليس مجرد التدريب على المهارات المطلوبة من أجل تشغيلها . وترتب على ذلك إرسال ١٣٠٠ـ مهندس وفني للتدريب خارج البلد قبل الاستثمار في المشروع حيث شارك هؤلاء بعد عودتهم في تشييد وتهيئة المصنع (٣)

ج - الاهتمام بالبحث العلمي والتطوير

لأجل إحداث التحول التقني المطلوب في الدول النامية ، لابد من التركيز على حيازة التقنيات من المستوى الثالث الواردة في الفصل ٢ -٣ من هذه الورقة . فمن المعروف أن الجهات المصدرة للتقنية المتطورة لا توافق على نقل جوانب كثيرة من المستوى الثالث ضمن مشروعات الاستثمار . ولكن بالإمكان قطعا أن يتم التفاوض في شأن الترتيبات الملائمة لنقل جوانب مهمة من

هذا المستوى من التقنيات . وهذا يعتمد بشكل رئيسي على الجهة المستوردة للتقنية ومدى حرصها وحسن تخطيطها لهذا الأمر . ومع ذلك تبقى جوانب هامة أخرى قد لا يوافق مالك التقنية على توفيرها مهما كانت الشروط . ولذلك لن يكون أمام المستورد إلا أن يستكمل معرفته التقنية عن طريق جهوده الذاتية . وذلك بواسطة مراكز البحث والتطوير، والمكاتب الاستشارية المحلية ، التي تكون مهمتها استكمال هذه المعرفة وتهيئة الأجواء المناسبةلتطويرالكفاءات الوطنية القادرة على حيازتها وتطويرها .

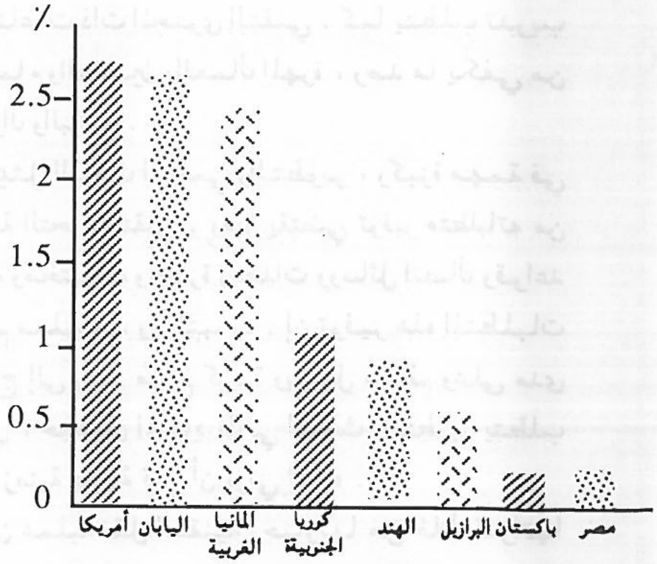
إن نشاط البحث والتطوير يعتبر دعامة أساسية ملازمة لأي تطور تقني في أي مجتمع ويعتبر مستوى الاهتمام بالبحث والتطوير أحد المؤشرات الرئيسية لطبيعة التطور التقني الذي يشهده ذلك المجتمع . ويبين الشكل -٤ مقدار الإنفاق على البحث والتطوير كنسبة مئوية من الدخل القومي لمجموعة من الدول المتقدمة والنامية . وواضح من هذه الأرقام العلاقة المباشرة بين التقدم التقني للدولة ومقدار ما ينفق فيها على البحث والتطوير والذي يعتبر المصدر الرئيسي للنمو التقني .

د - ربط برامج الجامعات بسياسات التصنيع ونقل التقنية

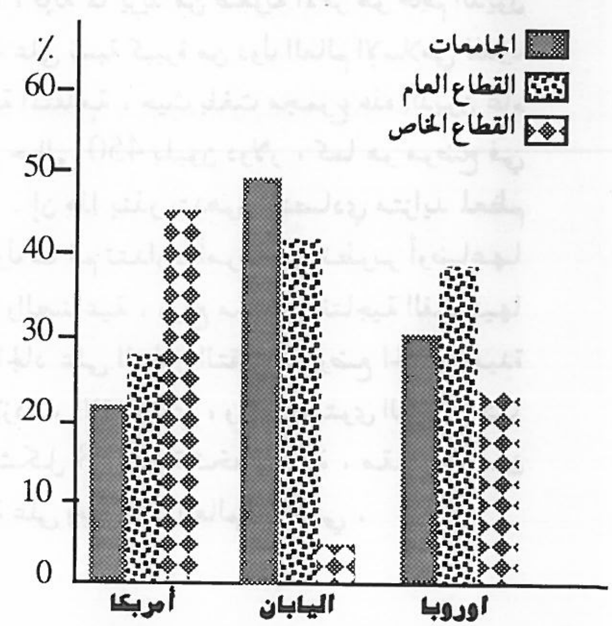
إن من أبرز المهام التي تتولاها الجامعات ومؤسسات التعليم العالي ، هي إعداد الأطر العلمية والتقنية والقيام بنشاطات البحث العلمي والتطوير . وهذان العنصران يمثلان الأساس الذي تستند إليه أية خطة للتقدم العلمي والتطور التقني . ولهذا وجب توثيق العلاقة بين الجامعات والمؤسسات ذات العلاقة بعمليات نقل التقنية وحيازتها ليتم التنسيق والتكامل فيما يتعلق بإعداد الأطر العلمية والتقنية اللازمة لنشاطات البحث العلمي والتطوير . إن طبيعة هذه العلاقة في أي مجتمع تعتبر إحدى المؤشرات على التقدم العلمي والتقني لهذا المجتمع . ويوضح الشكل - ٥ دور الجامعات ومؤسسات القطاع العام والخاص في الدول المتقدمة صناعيا ومقدار إسهامها في نشاطات البحث العلمي والتطوير ، والذي يشكل المصدر الرئيسي للتطور التقني . حيث يحصل قطاع الجامعات في اليابان على ما يعادل ٥٢ ٪ من الإنفاق الحكومي الكلي على البحث والتطوير بينما تتراوح حصته في دول السوق الأوروبية المشتركة والولايات المتحدة في حدود ٣٢ ٪ - ٢٣ ٪ على التوالي . أما في الدول النامية فلا تتوفر إحصائيات مشابهة لتقييم هذا الدور ولكن الانطباع العام عن مدى الارتباط بين الجامعات والصناعة في الدول النامية يؤكد ضعف هذه العلاقة أو انقطاعها في حالات كثيرة وهذا ما يؤكده الواقع التقني في هذه الدول .

هـ - العناية بالنظام التعليمي وتطوير مناهجه

يمثل النظام التعليمي قبل الجامعي ، الركيزة الأساسية في البناء الحضاري للأمم ، حيث يتم من خلاله التأثير المباشر على صياغة فكر المجتمع وتوجهاته ، وتحديد قيمه الاجتماعية والأخلاقية والمهنية ، وتزويد أفراده بالقدرات والمهارات اللازمة لتلبية احتياجات المجتمع . ولذلك نرى مدى العناية التي يحظى بها النظام التعليمي في الدول المتقدمة تقنيا ومدى الارتباط بين هذه العناية والتقدم العلمي والتقني فيها . يبين الجدول - ٢ مقدار التباين في الإنفاق على التعليم بين الدول الصناعية والدول النامية . كما يوضح الشكل - ٦ مقارنة نسبة المتعلمين (القراءة والكتابة) بين دول العالم الإسلامي والدول المتقدمة تقنيا .



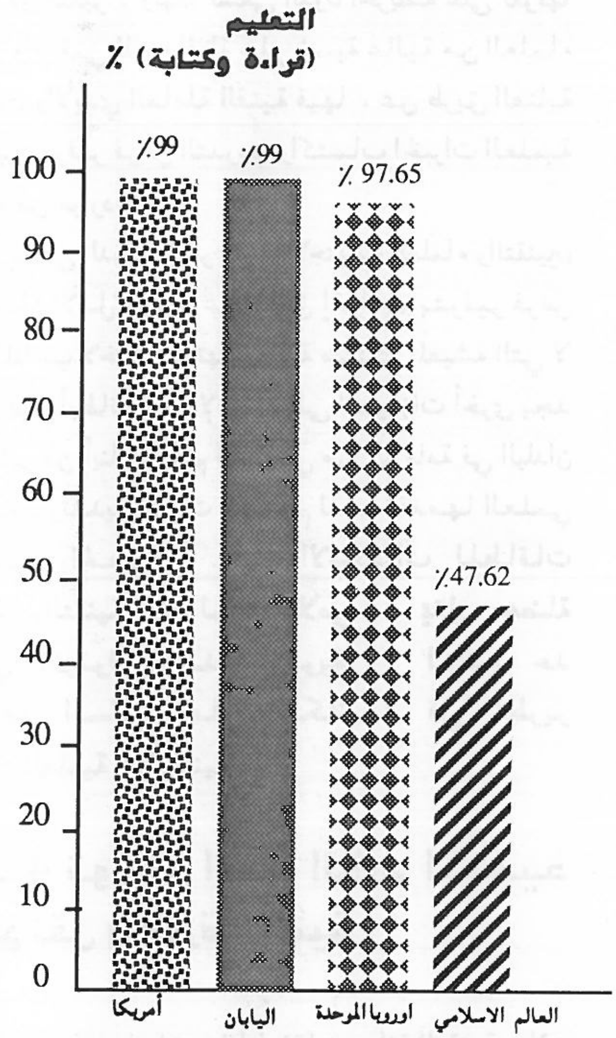
الشكل 4 الميزات المخصصة للإنفاق على البحث العلمي والتطوير في بعض الدول



شكل 5 الإنفاق الحكومي على البحث والتطوير في الدول المتقدمة

الدول	السكان (ملايين)	الدخل القومي العام مليون دولار	دخل الفرد دولار	الانفاق على التعليم ٪
الدول الصناعية	1,125	11.019.363	9795	5.1
الدولة النامية	3,651	2.697.982	739	3.8
جنوب اسيا	993	0.266.330	268	2.8
أمريكا اللاتينية والكاريبي	395	0.752.688	19.7	3.7

جدول - ٢ إنفاق بعض دول العالم على التعليم (١٩٨٤ م)



شكل 6 نسبة التعليم (قراءة وكتابة) في مجموعة من الدول لعام 88 ـ 1989 م

4ـ 3 توفير العدد الكافي من العلماء والتقنيين

إن العنصر الرئيسي الذي يتوقف عليه نجاح عملية نقل التقنية وحيازتها ، هو الإنسان المؤهل علميا وفكريا ونفسيا ، لتحمل ما تتطلبه هذه العملية من معرفة وحسن تدبير وصبر وقدرة على تذليل الصعاب والعقبات . وهذا ما تؤكده تجارب الأمم في الماضي والحاضر . فحيثما توفر العدد الكافي من العلماء والتقنيين في أية أمة ، تقدم العلم وازدهرت التقنية ، وحيثما تضاءل هذا العدد تخلف العلم ولم يكن للتقنية دورمتميز . ولهذا تسعى الدول الحريصة على تفوقها العلمي والتقني للمحافظة على نسبة عالية من العلماء والتقنيين والأيدي العاملة الفنية فيها ، عن طريق العناية بالتعليم وتوفير فرص التدريب واكتساب الخبرات العلمية والتقنية من مواردها .

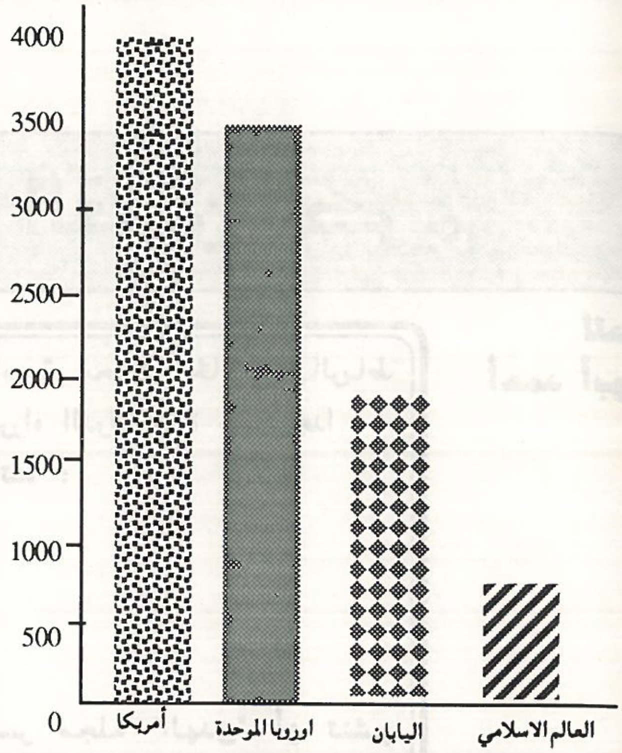
كما تسعى الدول الأكثر تقدما لاجتذاب العلماء والتقنيين من البلدان الأقل تقدما عن طريق إغرائهم بتوفير فرص العمل المناسب لاختصاصاتهم وتهيئة مستوى المعيشة التي لا توفرها لهم أوطانهم ، بالإضافة إلى امتيازات أخرى يجد معها كثير من أبناء العالم الإسلامي ميلا للإقامة في البلدان المتقدمة ، وتقديم ثمرات عقولهم لدعم تقدمها العلمي والتقني والحضاري .**وهذا الاستنزاف للطاقات العلمية والتقنية للعالم الإسلامي ، يمثل معضلة ينبغي الوقوف عندها طويلا ، لوضع حد لتأثيرها السلبي على إمكانيته في تطوير قدراته العلمية والتقنية .**

4ـ 4 توفير المال اللازم لتنفيذ برامج نقل وحيازة التقنية

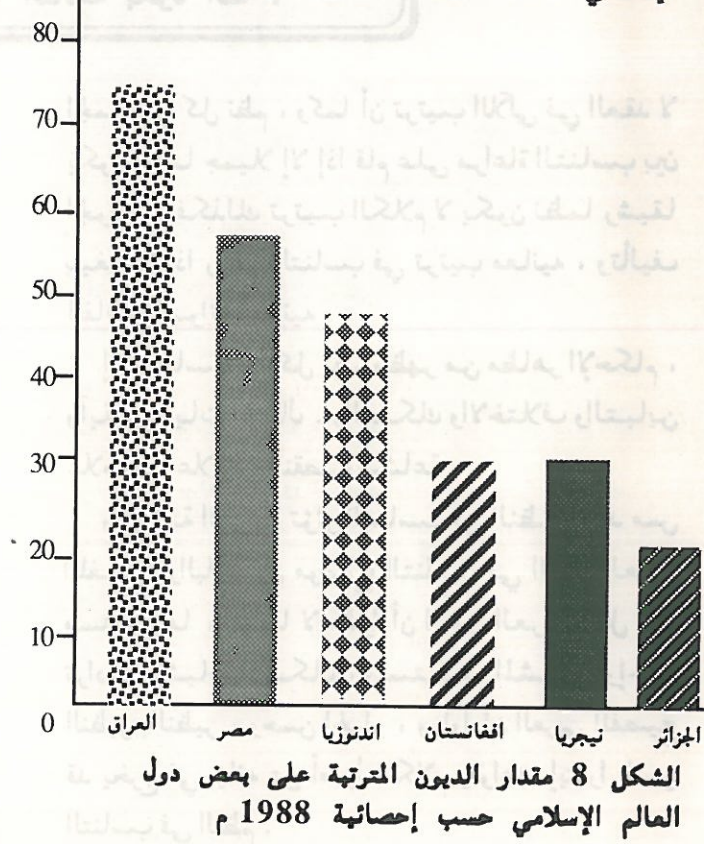
لأجل تنفيذ سياسات وخطط نقل وحيازة التقنية ، لابد من توفير الأموال اللازمة للاستثمارات الرأسمالية وإقامة الصناعات ذات المحتوى التقني . كما يتطلب تدريب العلماء والتقنيين والعمال المهرة ، رصد ما يكفي من الأموال والبرامج .

ويمثل البحث العلمي والتطوير ، ركيزة مهمة في عملية التحول التقني . وهذا يقتضي توفير متطلباته من أبنية ومختبرات وأجهزة ومعدات ووسائل اتصال وقواعد ونظم معلومات ومكتبات . إن توفير هذه المتطلبات يحتاج إلى رصد مبالغ كبيرة وبشكل منتظم وعلى مدى طويل ، حيث أن المردود المالي للبحث والتطوير يتطلب فترة زمنية طويلة قبل أن يؤتي ثماره .

إن عملية نقل التقنية وحيازتها من خلال قنواتها المختلفة التي استعرضت فيما سبق ، تتطلب رصد مبالغ مالية كبيرة واستخدامها بطريقة كفؤة وفاعلة وهذا ما تفتقر إليه معظم الدول النامية ومن ضمنها معظم دول العالم الإسلامي . إن الفرق الكبير بين الإنتاج القومي الإجمالي للعالم الإسلامي والدول المتقدمة يوضحها الشكل 7 تبرز مدى الصعوبات التي يجب التغلب عليها لتضييق الفجوة الشاسعة التي تفصل الواقع التقني في العالم الإسلامي عن ما يقابله في الدول المتقدمة بالإضافة إلى ذلك ، فإنه مما يزيد من صعوبة الأمر هو حجم الديون المستحقة على نسبة كبيرة من دول العالم الإسلامي للدول الصناعية المتقدمة ، حيث بلغت مجموع هذه الديون عام 1988م حوالي 450 بليون دولار ، كما هو موضح في جدول 3 . إن هذا ينذر بتدهور اقتصادي متزايد لمعظم هذه الدول ما لم تتدارك أمرها في تطوير أوضاعها الزراعية والصناعية ، ورفع مستوى إنتاجية الفرد فيها والتركيزالجاد على التطور التقني ، ووضع الخطط بعيدة المدى للازدهار الإقتصادي ، ورفع مستوى الدخل . كما يبرز الشكل 8 بصورة تخطيطية ، مقدار الديون المستحقة على بعض دول العالم الإسلامي .



شكل 7 الانتاج القومي بين دول العالم الإسلامي والدول المتقدمة (بليون دولار)



الشكل 8 مقدار الديون المترتبة على بعض دول العالم الإسلامي حسب إحصائية 1988 م

الدولة	الديون المستحقة (بليون دولار)	الدولة	الديون المستحقة (بليون دولار)
الجزائر	21.5	الكامرون	3.9
البحرين	0.365	تشاد	0.27
جيبوتي	0.140	الجابون	2.2
مصر	55.6	غانا	2.9
إيران	3.6	غينيا	1.6
العراق	75.0	غينيا بيساو	0.408
الأردن	8.1	مالي	2.0
النيجر	1.9	نيجيريا	29.9
لبنان	0.499	السنغال	3.9
ليبيا	9.8	زامبيا	0.273
موريتانيا	2.076	سير اليون	0.66
المغرب	19.5	يوغندة	2.1
عمان	3.7	أفغانستان	30
بنغلاديش	8.4	ماليزيا	18.1
سوريا	19.9	الباكستان	16.4
الصومال	1.75	أندونيسيا	47.3
السودان	13.8	تونس	8.1
اليمن الشمالي	3.4	اليمن الجنوبي	2.1
بنين	0.96	بوركينافاسو	0.72

جدول 3 . الديون المستحقة على بعض دول العالم الإسلامي (1988 م)

الحلقة الأخيرة في العدد القادم بحول الله

رسائل جامعية

التناسب في القرآن الكريم

للدكتور
أحمد أبو زيد

نوقشت هذه الأطروحة بكلية الآداب -جامعة محمد الخامس بالرباط بتاريخ ثالث يناير 1991 م ونال صاحبها دكتوراه الدولة بميزة حسن جدا .
وكانت لجنة المناقشة مكونة من السادة الأساتذة :
الدكتور محمد الكتاني رئيسا
الدكتور أمجد الطرابلسي مقررا
الدكتور عزت حسن عضوا
والدكتور اعراب الطريسي عضوا
ولأهمية هذه الرسالة موضوعا ومنهجا يسر مجلة "الهدى" أن تنشر العرض الذي قدمه الأستاذ أبو زيد أمام لجنة المناقشة ، وتعد قراءها الكرام بنشر فصول مختارة من هذه الرسالة في الأعداد القادمة بحول الله .

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها السادة والسيدات ،

إن القرآن الكريم "كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير" ، "فصله الله على علم هدى ورحمة لقوم يومنون" ، وسماه بأحسن الحديث ، وجعله كتابا متشابها ، منزها عن الاختلاف والتفاوت ، فسبحان من أحكمه وفصله ، وزينه بجمال الألوهية وجلالها ، وجعله آية في تناسب النظم وإحكام الرصف ، ذلك تقدير العزيز العليم .

وبعد .. فإن هذه الدراسة التي أتقدم بها تتناول بالبحث والتحليل موضوع التناسب في النظم القرآني وإيقاعه .

وإذا كان النظم هو ترتيب اللؤلؤ في العقد ، أو تأليف الكلمات والجمل مترتبة المعاني متناسبة الدلالات على حسب ما يقتضيه العقل والذوق ، وكان التناسب هو حصول التوافق والتناظر بين الأشياء المنظومة ، إذا كانا كذلك فإن العلاقة بين النظم والتناسب علاقة متينة ، لأن التناسب هو أهم أسرار الجمال في كل نظم ، وكما أن ترتيب اللآلى في العقد لا يكون نظما جميلا إلا إذا قام على مراعاة التناسب بين الجواهر ، فكذلك ترتيب الكلام لا يكون نظما رشيقا بليغا إلا إذا روعي التناسب في ترتيب معانيه ، وتأليف ألفاظه وأصواته ومبانيه .

إن التناسب في كل نظم مظهر من مظاهر الإحكام ، وآية من آيات الجمال . والتفكك والاختلاف والتباين علامة من علامات النقص والبشاعة .

والبلاغة العربية تؤثر التناسب في النظم . وقد مس اللغويون والبلاغيون موضوع التناسب في البيان العربي مسا خفيفا ، عندما لاحظوا أن الذوق العربي يميل إلى ترادف الأشباه والأشكال ، ويستطيب المشاكلة وإلحاق النظير بالنظير ، وحسن الجوار ، ورأوا أن العربي الفصيح قد يخرج في بيانه عن أصول الكلام وقواعده إيثارا لحسن التناسب في النظم .

لكن الملاحظات المتعلقة بهذه الظاهرة الأسلوبية لم

يكتب لها أن تجمع وتدرس دراسة أسلوبية وافية ، فبقيت متناثرة في تضاعيف مصادر اللغة والنحو والتفسير والبلاغة.

والقرآن الكريم الذي أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ، ينفرد في نظمه وأساليبه ومبانيه ومعانيه بخصائص ومزايا كثيرة : أهمها التناسب والإحكام التام في كل شيء . وهذه الدراسة التي هي محاولة مخلصة للبحث في هذا الجانب الهام من بلاغة النظم القرآني تنطلق من الإيمان بأن القرآن الكريم "كتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد" . وبأن صدوره عن الكمال المطلق يقتضي أن يكون مثالا في إحكام النظم وحسن البيان، متناسبا في معانيه ومبانيه ، وترتيب آياته ، وتأليف ألفاظه وأصواته وكلماته وإيقاعه . منزها عن الاختلاف والتباين ، "أفلا يتدبرون القرآن ، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا"

فالتناسب ، إذن ، آية على أن القرآن من عند الله ، وهو من أهم الخصائص التي تميزه عن كلام البشر .

وكان من المفروض أن ينال هذا الموضوع حظا وافرا من عناية العلماء والمفسرين . خصوصا وقد ظهرت في وقت مبكر أسباب كان من شأنها أن تقوي الاهتمام به . من ذلك :

1 - أن عصر الصحابة رضي الله عنهم شهد إثارة أسئلة حول التناسب المعنوي بين بعض الآيات .

2 - أن القرن الثاني شهد حملة قوية للطعن في القرآن ، وكان من جملة المطاعن التي أثيرت آنئذ التفكك والاختلاف والتناقض.

وقد قام فريق من العلماء بالتصدي لهذه الحملة لتأكيد سلامة القرآن وتنزيهه عن المطاعن وكانت ردودهم على الطاعنين ، خصوصا منها تلك التي تتعلق ببعض أوجه التناسب في النظم القرآني صالحة لأن تكون نواة لعلم من علوم القرآن يستقل بهذا الموضوع ، ويعنى بأقسامها كلها.

غير أنه ، ومع وجود هذه الأسباب ، ظل حظ هذا الموضوع من عناية العلماء قليلا .

وقد سجلت مصادر علوم القرآن تأخر ظهور البحث فيه وقلة عناية العلماء به ، فذكرت أن علم المناسبة لم يظهر إلا في القرن الرابع للهجرة ، وأن الشيخ أبا بكر النيسابوري المتوفى سنة 324 هـ هو الذي أظهره ببغداد ، وكان يرزي على علماء بغداد لعدم علمهم بالمناسبة . وذكرت أيضا أن أبا بكر بن العربي المعافري شكا من قلة الاهتمام بهذا العلم ، وأوضح أن الله تعالى فتح له فيه ، لكنه لما لم يجد له حملة ، ووجد الناس بأوصاف البطلة ، ختم عليه وجعله بينه وبين ربه .

حقا إن الباحث يلتقي من كتب الإعجاز وأمهات التفسير بإشارات متفرقة إلى بعض أوجه التناسب القرآني ، لكنها إشارات قليلة متناثرة تقتصر -غالبا- على التناسب المعنوي ، وبيان وجه الارتباط بين الآيات ولئن كانت تلك الإشارات لاتشفي غليل الباحث ، فإنها تدل علي وجود وعي متصل بقيمة التناسب في النظم القرآني ، لكن هذا الوعي لم يكتب له أن يتجسد في دراسات وافية تتناول سائر أوجد التناسب في النظم القرآني بالتفصيل وتجمع ما تناثر منها بصورة تجعلها قريبة من تناول طلابها .

و من الغريب أن حظ هذا الموضوع من عناية العلماء و الدارسين في العصر الحديث . لم يكن بأفضل من حظ من عنايتهم في القديم . و لعل أول ما يشهد على ذلك أن الجهود لم تتجه إلى نشر ذلك القدر القليل من المصادر القديمة التي تناولت بعض أطراف هذا الموضوع ، فبقيت قيد الإهمال محجوبة عن الأنظار، و ما كتب له منها أن يرى النور فلم يره إلا في السنوات الأخيرة . كتفسير برهان الدين البقاعي المسمى : "نظم الدرر في تناسب الآي والسور" الذي لم يطبع طبعته الأولى إلا سنة 1969م ، ومع ذلك فلا يزال في حكم المفقود أو النادر . ومثل كتاب ابن الزبير الغرناطي المسمى ملاك التأويل الذي لم يكتب له أن يحقق وينشر إلا سنة 1983 ، وككتاب جلال الدين السيوطي المسمى "تناسق الدرر في تناسب السور" الذي لم يظهر في طبعة محققة إلا سنة 1986 .

و يشهد لقلة العناية بهذا الموضوع . كذلك أن أحدا

من الباحثين المحدثين لم يفرد له دراسة مستقلة وافية ، هذا على الرغم من قيام سوق البحث على قدم وساق في عدد من المراكز والجامعات و المطلع على الدراسات القرآنية و التفاسير الحديثة لا يجد إلا إشارات ومقالات متفرقة تعرض بعض أسرار التناسب في النظم القرآني . ومع قلة هذه الفصول فإنها لا تخلو من نظرات قيمة جديدة في هذا الباب .

من خلال هذا العرض الموجز يتضح أن موضوع التناسب في النظم القرآني ، على أهميته ، لم ينل بعد حظه من البحث ، ويتأكد أنه في حاجة إلى دراسة مستقلة تجمع ما تفرق من أطرافه ، وتهتم بإبراز أوجه المختلفة ، وتعني بتحليلها وتوضيحها . وتقريبها من متناول الدارسين .

كان اختيار الدراسة الأسلوبية المتعلقة بالنظم القرآني مجالا للبحث استجابة لرغبة عميقة ، كانت النفس قد انطوت عليها منذ وقت طويل . فكانت تدفعني دائما إلى الإستزادة من فهم أسرار البيان القرآني ولغته ونظمه المعجز ، وقد كانت هذه الرغبة من أهم العوامل التي حددت و جهتي أثناء التفكير في اختيار موضوع لرسالتي هذه ، فاتجه بي الاهتمام أول الأمر إلى جانب التركيب الصوتي وخصائصه . ثم لما تقدمت في البحث والقراءة تبين لي أن موضوع التناسب القرآني لم ينل ما يستحق من البحث والدراسة ، فاخترت أن يكون هو موضوع رسالتي .

وقد يبدو للوهلة الأولى أن مجال البحث في التناسب القرآني محدود ، لكنه ، في الواقع ، و على العكس من ذلك تماما ، موضوع واسع ، مجال البحث فيه متشعب الأطراف ، متعدد الجوانب ، إذ أنه يشمل عناصر النظم كلها : المعاني و المباني ، و الألفاظ ، والأصوات وطرفا من البنية الإيقاعية . والبحث فيه يحتاج إلى زاد وافر من العلوم ، لا يتوافر إلا بالإطلاع على علوم كثيرة : لغوية ، وأدبية ، وقرآنية ، غيرها ، وقد كنت ، منذ المراحل الأولى من البحث ، واعيا بما يكتنف هذا الموضوع من صعوبات ، أدركت ذلك حينما بدأت في قراءة القرآن الكريم ، وتدبر أسرار التناسب في نظمه . إذ كان البحث في كل جزئية من جزئيات الموضوع يردني باستمرار إلى مصادر علوم اللغة والبلاغة والنقد والتجويد والتفسير وغيرها من علوم القرآن .

وإذا كانت معرفة أسرار التناسب في البلاغة العربية عموما تحتاج ـ كما ذكر حازم القرطاجني في منهاج البلغاء ، إلى ما سماه بعلم اللسان الكلي ، الذي يشمل علوم اللغة كلها ، إضافة إلى الحكمة والمنطق ، فإن معرفة أسرار التناسب في النظم القرآني تحتاج إلى ذلك كله مضافا إليه علوم أخرى خاصة بالقرآن الكريم .

وهكذا دعا اتساع مجال البحث في هذا الموضوع إلى قراءات موسعة في مصادر علوم اللغة والبلاغة والنقد وبحوث الإعجاز والقراءات والتفسير ، ومصادر معاني القرآن وإعرابه ، كما دعا إلى الرجوع إلى مراجع الدراسات اللغوية والنقدية والقرآنيةالحديثة ، وإلى الاتصال بالعلماء والأساتذة المتخصصين والاسترشاد بهم .

وقد وجدت في توجيهات أستاذي المشرف : د ـ أمجد الطرابلسي النيرة وملاحظاته القيمة مايسدد خطاي في مضايق البحث ومنعرجاته . كما وجدت في محبته للقرآن والرغبة في الاستزادة من معرفة أسراره ، وتذوق حلاوة بيانه ما يخفف عني من عناء القراءة والتقصى ، وما يمدني بالزاد المعنوي اللازم لمواصلة العمل ، وتذليل ما يقف في طريق هذا البحث من صعوبات ، ويعترض من مشاكل .

ومن أهم المشاكل التي واجهتني في أول الطريق مشكل المصطلح ، فقد اتضح لي مما قرأته من المصادر والمراجع جملة من الحقائق أهمها :

1 ـ أن مصطلح التناسب لم يكن محددا بصورة مضبوطة .

2 ـ أنه كان يستعمل استعمالات مختلفة ، يتسع مفهومه عند بعض العلماء ليشمل أبواب كثير من أساليب البيان وطرق الصياغة اللفظية ، وتأليف المعاني وتنسيق أجزاء الكلام ، ويضيق أحيانا لينحصر في جزئية واحدة ، أو في وجه واحد من أوجه التناسب المعنوى ، هو التناسب بين مطلع الآية ومقطعها ، أو بين صدر البيت وعجزه .

3 ـ أن أوجه التناسب التي تناولتها المصادر لم تخضع

لأي شكل من أشكال التنظيم والتصنيف . بل تعرض متناثرة في أبواب متفرقة ، وتحت ألقاب ومصطلحات متنوعة ، كل ذلك بصورة توهم أن كل باب قائم بنفسه ، لاتربطه رابطة ما بأوْجُه التناسب الأخرى .

4. أن المصطلحات المستعملة في المصادر لتسمية أوجه التناسب لم تكن موحدة ، بل كان الوجه الواحد يسمى بأسماء متعددة ، ونتيجة لذلك وقع التضارب بين العلماء في استعمال تلك المصطلحات .

وبظهور هذه الحقائق ظهرت الحاجة إلى تحديد المراد بمصطلح التناسب في هذه الدراسة وتوضيح مفهومه وحدوده ، لأن دراسة أوجه التناسب في النظم القرآني برؤية جديدة، تطمح إلى إبراز قيمة مبدأ التناسب في هذا النظم ، تقتضي ضبط المصطلح وتحديد مدلوله .

ولكي أظهر الحاجة إلى ذلك ، كان علي أن أعرض المصطلحات الكثيرة التي ترددت في مصادر الدراسات القرآنية والبلاغية القديمة مع محاولة تصنيفها حسب أوجه التناسب المختلفة وقد استفدت من توجيهات أستاذي المشرف القيمة ومن المخطط الذي وضعته لهذه الدراسة في اختيار الطريقة المناسبة لعرض تلك المصطلحات ، وتقوم على ثلاث مراحل .

1. استقراء تلك المصطلحات من المصادر

2. تصنيفها إلى ثلاث مجموعات هي :

أ ـ مصطلحات التناسب المعنوي

ب ـ مصطلحات التناسب اللفظي والصوتي

حـ ـ مصطلحات التناسب الإيقاعي

3. ترتيب كل مجموعة ترتيبا معجميا .

وفي ختام عرض تلك المصطلحات قدمت إيضاحات واستنتاجات توضح بعض صور التضارب في استعمالها ثم تقدمت باقتراح دعوت فيه إلى تعميم مصطلح التناسب وتوسيع مفهومه ليشمل فنون البيان التي تناثرت ـ كما ذكرت في أبواب متفرقة .

وقد ارتكزت في هذا الاقتراح على جملة من الحقائق الثابتة أهمها :

1 ـ أن مصطلح التناسب عرف استعمالا واسعا لدى الفلاسفة وعلماء الجمال ، ويعد لديهم قانونا كبيرا من قوانين الجمال في المرئيات والمسموعات والمفهومات .

2 ـ أن هذا المصطلح عرف كذلك استعمالا واسعا في مصادر علوم القرآن ، وصار لدى المتأخرين عنوانا لنوع من علوم القرآن ، غير أنهم قصروا موضوعه على وجه واحد من أوجه التناسب المعنوي في النظم القرآني ، هو التناسب بين الآيات .

3 ـ أن من كبار البلاغيين من سبق إلى تعميم هذا المصطلح ، وتوسيع مفهومه ، كابن سنان الخفاجي وحازم القرطاجني ، فقد جعلا من مبدأ التناسب أصلا بيانيا كبيرا يشمل فروعا كثيرة من أبواب الصياغة اللفظية والصناعة المعنوية ، ولم تمزق وحدة هذا المبدأ إلا على يد بعض المتأخرين من أصحاب البديعيات الذين كانوا يتنافسون في اختراع أنواع البديع ، والإكثار من أبوابه ومصطلحاته .

4 ـ أن تعميم هذا المصطلح ، والعودة به إلى مدلوله الواسع الذي عرفه من قبل ، لا يضر الدراسات الأسلوبية والقرآنية في شيء ، بل هو اختيار يرجى أن يعود عليها بالخير ، وذلك لأنه قد يسهم في التخفيف من قاموس المصطلحات التي ترهق كاهل الدراسات البلاغية والقرآنية، وفي ضبط تلك المصطلحات وجمع شتاتها ، كما أنه قد ييسر الاطلاع على وجه من البلاغة القرآنية ، لا يزال يعاني من الإهمال وقلة العناية .

5 ـ أن تعميم هذا المصطلح ، هو الذي سيجعله صالحا لأن يكون عنوانا لعلم من علوم القرآن يتسع موضوعه لتناول سائر أوجه التناسب المعنوي واللفظي والصوتي والإيقاعي ، بدل أن يقتصر كما كان من قبل ، على وجه واحد من أوجه التناسب المعنوي ، بينما ظلت الأوجه الأخرى متناثرة في ثنايا أنواع أخرى من علوم القرآن وبالتغلب على هذا المشكل انزاحت أكبر عقبة من طريق هذا البحث فتحددت معالمه ، وتبينت خطوطه ، الكبرى .

و بذلك انقسم إلى قسمين كبيرين يتناولان أهم أوجه

التناسب المعنوي واللفظي والصوتي والإيقاعي في النظم القرآني ، ثم تبين أن الدراسة بقسميها تحتاج إلى تمهيد يوضح قيمة مبدأ التناسب في الجمال عموما ، وفي الأدب والبلاغة وإعجاز القرآن ، ويقدم نبذة عن جهود الباحثين والدارسين في موضوع التناسب القرآني ، توضح مدى عنايتهم أو إهمالهم لهذا الموضوع .

وقد رتبت مباحث هذا التمهيد في خمسة فصول :

الأول : التناسب عند علماء الجمال

الثاني : التناسب عند الأدباء و البلاغيين و علماء الإعجاز

الثالث : التناسب في الدراسات القرآنية القديمة

الرابع : التناسب في الدراسات القرآنية الحديثة

الخامس : مصطلحات التناسب في الدراسات القرآنية والبلاغية .

وأما القسم الأول من الدراسة فقد تناول أوجه التناسب المعنوي في النظم القرآني . وقد رتبت مباحث هذا القسم في ثلاثة أبواب و سبعة فصول .

الباب الأول في : تناسب المعاني المتوافقة و يتألف من ثلاثة فصول

الفصل الأول : في التناسب المعنوي ووحدة السورة

الفصل الثاني : في تناسب آيا ت العقيدة ، أو اقتران القضايا بأدلتها .

الفصل الثالث : التناسب المعنوي في التعقيبات القرآنية .

الباب الثاني في : تناسب المعاني المتقابلة و يتألف من فصلين

الفصل الأول : التقابل و أساليبه في القرآن

الفصل الثاني : التقابل في مشاهد النعيم و العذاب

الباب الثالث: التناسب ووحدة النسق

و يتألف من فصلين :

الفصل الأول: وحدة النسق و اختيار المفردات

الفصل الثاني: وحدة النسق و اختيار التراكيب

وأما القسم الثاني فقد تناول أوجه التناسب اللفظي والصوتي والإيقاعي ويتألف من ثلاثة أبواب ، هي الأبواب الرابع والخامس والسادس من الرسالة .

الباب الرابع : قيمة التناسب الصوتي والإيقاعي في العربية والقرآن .

ويتألف من فصلين :

الفصل الأول : حظ العربية من الخصائص الصوتية والإيقاعية

الفصل الثاني : روعة القرآن والتناسب الإيقاعي

جعلت هذا الباب توطئة لهذا القسم لبيان أمرين :

الأول :

أن ما تمتاز به اللغة العربية من خصائص صوتية واشتقاقية و معجمية و تركيبية هو الذي أمدها بالقدرة على مسايرة مقتضيات التناسب اللفظي و الصوتي والإيقاعي في النظم القرآني .

الثاني :

أن ما يختص به القرآن من الروعة ومن التأثير العميق في النفوس يرجع ، في جانب منه على الأقل ، إلى ما له من حلاوة خاصة ، تنبع من التناسب الصوتي و الإيقاعي الذي يستهوي به الآذان والنفوس .

أما الباب الخامس : فيتناول التناسب اللفظي ويتألف من فصلين :

الأول : في تناسب المشاركة والمجانسة

الثاني : في تناسب المجاورة والاتباع

وأما الباب السادس : فيتناول التناسب الصوتي و الإيقاعي .

و يتألف من أربعة فصول :

الأول : تناسب الأصوات في نظم الآيات

الثاني : تناسب المقاطع الصوتية القرآنية

الثالث : التوازن وتناسب المقدار

الرابع : تناسب الفواصل

وكان من المرسوم في خطة البحث أن يتناول كذلك أوجه التناسب في طرق الأداء عند أئمة القراء ، لكن القراءة الموسعة في كتب القراءات وتوجيهها والاحتجاج لها ، واستشارة بعض أهل الاختصاص أوضحت لي أن مجال البحث في هذا الجانب أوسع مما كنت أتصور ، لأنه يقتضي دراسة اختيارات القراء السبع على الأقل ، والبحث في علة أو علل اختيار كل واحد منهم ، وبيان ما يراعيه من تناسب في القراءة وطريقة الأداء .

وهذا موضوع واسع ، يحتاج إلى دراسات متخصصة ، ولكن بعضا من اختيارات القراء يتصل بمراعاة التناسب في النظم ووحدة النسق وانتظام أجزاء الكلام . وللصلة القوية بين هذه الاختيارات وبين موضوع هذه الدراسة كان من الواجب أن يشملها الاهتمام . ومن هنا أدرجت أمثلة كثيرة منها في أماكنها المناسبة من فصول الدراسة .

تلك لمحة مجملة عن أقسام الدراسة ، أما المنهج الذي اعتمدت عليه فهو منهج زاوجت فيه بين المنهجين : النظري والتطبيقي .

أما الأول فقد اعتمدته في التمهيد وفي بيان قيمة كل وجه من أوجه التناسب القرآني وآراء العلماء فيه وأما الثاني فقد اعتمدته في استقراء أوجه التناسب في النظم القرآني وتحليل الأمثلة والنماذج المختارة غير أنني وجدت صعوبة كبيرة في تطبيق المنهج الاستقرائي تطبيقا كاملا في بعض فصول هذه الدراسة ، وترجع أسباب صعوبة ذلك إلى كثرة الأمثلة في كل وجه من أوجه التناسب المعنوي واللفظي والصوتي وترجع كذلك إلى صعوبة الإحاطة بأسرار كلام الله سبحانه .

فعندما قمت باستقراء أوجه التناسب المعنوي مثلا تبين أن كثيرا من المعاني الجزئية والكلية ترد في القرآن مقترنة لما يجمع بينها من التوافق أو التقابل وتبين لي كذلك أن عرض جميع ما تم استقراؤه يزيد من طول الدراسة فاقتصرت على عرض نماذج من أمثلة التناسب في المعاني الكلية المتوافقة والمتقابلة .

وتناسب المعاني المتوافقة ينجلي في وحدة السورة وفي اقتران القضية بأدلتها وفي التوافق بين الآيات وتعقيباتها .

أما وحدة السورة فأهم مقوماتها التناسب بين مطلع السورة وموضوعها من جهة ، وبين خاتمتها وموضوعها ، من جهة ثانية ، والتناسب بين المعاني والمشاهد المعروضة فيها ، والتناسب بين الحلقات القصصية المعروضة فيها ، وبين عرضها العام . ولإبراز هذا المظهر الأخير قمت باستقراء تام لحلقات قصة إبراهيم عليه السلام في سائر السور ، وأوضحت ، قدر المستطاع أوجه التوافق بين كل حلقة وبين موضوع السورة التي عرضت فيها .

وأما اقتران القضية بأدلتها فأهم أضربه هي تلك التي تتجلى في آيات العقيدة حيث تقترن أصول العقيدة بالأدلة التي تثبتها وقد قمت باستقراء هذه الأيات وبتصنيفها حسب أصول العقيدة : التوحيد ، والبعث والنبوة . ولكثرة الآيات في كل مجموعة اقتصرت على عرض نماذج منها ، مع محاولة رصد الطرق التي ترتبط بها ، ثم أنهيت العرض بتقديم جملة من الاستنتاجات التي كشفت عنها عملية الاستقراء .

وأما التوافق بين الأيات وتعقيباتها فمن أبرز أوجه التناسب المعنوي في القرآن ، وقد حاولت أن التزم بالمنهج الاستقرائي في دراسة هذا الوجه ، لكن ووجهت باتساع كبير في الموضوع فعدلت إلى دراسة لون واحد من التعقيبات في سورة البقرة ، هو التعقيب على الآيات بصفات الله تعالى ، فقمت باستقراء كامل لأمثلة هذا اللون وعرضتها مع تحليل مجمل للآيات وتوضيح لأوجه التناسب بين معنى كل آية وما ورد في ختامها من الصفات الإلاهية .

وفيما يخص تناسب المعاني المتقابلة فقد ظهر من بعد الاستقراء أنه سمة بارزة في النظم القرآني وأنه يقع بين المعاني الجزئية والمعاني الكلية أما التقابل في المعاني الجزئية فيتجلى في ثنائيات القرآن المتقابلة أو المتضادة ، كالخير والشر والحق والباطل ، والنور والظلام ، والكفر

والإيمان والغيب والشهادة ، والسر والعلن ، والموت والحياة والأرض والسماء ....

وأما التقابل في المعاني الكلية فقد حاولت هذه الدراسة أن ترصد أضربه في القرآن فأبرزت أنه ياتي على خمسة أساليب :

1ـ التقابل المألوف : وهو الذي تكون عناصره في كل من الطرفين مرتبة الترتيب الطبيعي.

2 ـ التقابل الملفوف : وهو الذي تكون عناصره غير مرتبة الترتيب الطبيعي.

3 ـ التقابل المحذوف : وهو الذي تحذف منه بعض العناصر ، وقرينة الحذف في هذا الضرب هي التناسب .

4 ـ التقابل الضمني : وهو الذي يكون بين منطوق الكلام ومفهومه .

5 ـ التقابل بالسلب والإيجاب : وهو الذي يكون بين المعاني المنفية والمعاني المثبتة .

بعد عرض أساليب التقابل المعنوي قمت بدراسة التقابل بين آيات الترغيب والترهيب فوجهت العناية إلى استقرائها ثم عرضت أمثلة مختارة منها ، مصنفة بحسب طرق العرض فيها ، مع تحليلها ورصد مظاهر التقابل الكلي والجزئي بينها وفيما يخص التناسب الذي يراعي في النظم القرآني حفاظا على وحدة السياق فإن دراسته تتوقف على التحليل الدقيق للمعاني والألفاظ والتراكيب في كل سورة أوفي كل مقطع منها . والبحث في معاني المفردات والفروق المعنوية بين الكلمات المترادفة أو المتقاربة وفي دلالات التراكيب ، وذلك لمعرفة الوشائج اللطيفة التي دعت إلى استعمال كلمة أو تركيب دون غيره ، وتحديد وجه المناسبة بينها وبين موقعها الخاص من السياق القريب والبعيد وقد حاولت إبراز هذا الوجه من التناسب اللطيف في النظم القرآني ، ووجدت في الآيات المتشابهة لفظا ، التي تكررت في القرآن في عدة مواضع ، مع اختلافات لفظية أو تركيبية ، بزيادة كلمة أو حذفها ، أو بإبدال كلمة بما يقاربها أو يرادفها أو بتقديم أو تأخير . وجدت في هذه الآيات مادة صالحة لإبراز هذا الوجه من التناسب القرآني .

ولكن الدراسة الاستقرائية لهذا الوجه لم تكن ميسرة ، وذلك لأن القرآن كله محكم النظم ، وليس من بين عناصره إلا ما هو متمكن في موقعه ، مستقر في نسقه استقرار الكواكب في أفلاكها ، تذهب الأيام وتجئ فلا يظهر منه للناس إلا التناسب والانتظام ، " فارجع البصر هل ترى من و الانتظام فطور ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير " .

من هنا اقتصرت على عرض نماذج من الآيات وتحليلها ، وإبراز أوجه التناسب في استعمال بعض المفردات والتراكيب.

وأكبر الصعوبات المنهجية هي تلك التي واجهتني في الباب الأخير من الدراسة ، وهو يتناول التناسب اللفظي والصوتي والإيقاعي في النظم القرآني ، ومرد الصعوبة أن دراسة التناسب في هذه الجوانب تفتقر إلى معرفة خصائص اللغة العربية المعجمية والصوتية والتركيبية ، وإلى إبراز قيمة التناسب الصوتي والإيقاعي في القرآن ، كما تفتقر إلى دراسات تفصيلية عن التركيب الصوتي والإيقاعي في النظم القرآني.

حاولت أن أتخطى هذه الصعوبات فقدمت في أول الباب لمحة عن حظ اللغة العربية من الخصائص الصوبية والإقاعية ، ولمحة أخرى عن قيمة التناسب الإيقاعي وتأثيره فيما يمتاز به القرآن من روعة ورهبة . ثم تناولت أوجه التناسب الصوتي والإيقاعي من ناحيتين .

في الناحية الأولى درست تناسب الأصوات والمقاطع الصوتية . وفي الثانية درست التوازن وتناسب المقدار وتناسب الفواصل.

أما تناسب الأصوات فينشأ عن توزيعها بصورة تنأى بالكلام عن التنافر ، ويتفاوت الناس في الإحساس به بسبب اختلاف الطبائع . لكن يصعب إخضاعه للتحليل الصوتي التفصيلي . وقد قمت بمحاولات كثيرة لتحليل بعض الآيات والبحث عن أسرار التناسب في توزيع الأصوات على اختلاف مخارجها وصفاتها فخرجت منها مقتنعا بأن كل الأحكام الجمالية التي يمكن استخلاصها لا

تعدو أن تكون أحكاما ذاتية يصعب الدفاع عنها .

ومن هنا اخترت أن أتجه بالبحث في تناسب الأصوات وجهة أخرى هي الكشف عن الطرق التي تجنب بها النظم القرآني أسباب التنافر وحافظ بها على التناسب بين الأصوات وقد أمكن رصد مجموعة من تلك الطرق ، وهي :

1 ـ تجنب تتابع الأصوات المتماثلة أو المتقاربة .

2 ـ تجنب تتابع الحركات الثقيلة .

3 ـ تجنب إيقاع الهمزة المضمومة بعد المكسورة من الكلمتين .

4 ـ تجنب استعمال بعض الألفاظ أو الأبنية الاشتقاقية.

وقد اتضح من خلال تحليل الأمثلة أن السر في اختيار بعض الألفاظ أو المشتقات أو غيرها وفي تجنب غيرها يمكن رده إلى مراعاة تناسب الأصوات ...

وأما تناسب المقاطع فينشأ عن طريقة تأليفها وتوزيعها في الآيات . وقد أوضحت أن ما يمتاز به القرآن من حلاوة خاصة يرجع في جانب كبير منه إلى تناسب المقاطع .

غير أن ترتيب المقاطع الصوتية في نظم الآيات لا يخضع لنظام محدد كما في الشعر مثلا ، بل يتنوع تنوعا لا حد له . ومن هنا كانت الصعوبة في دراسة طرق ترتيب المقاطع القرآنية كبيرة ومع ذلك فقد كشفت المحاولات التحليلية التي قمت بها عن صور من التناسب وفي توزيع أنواع المقاطع وترتيبها في بعض الآيات . ويكثر هذا النمط من الآيات في السور المكية والتي يؤدي فيها التناسب الصوتي والإيقاعي وظيفة تعبيرية ملحوظة.

وهناك ألوان أخرى من التناسب في توزيع المقاطع وترتيبها تتخلل البنية الصوتية للآيات القرآنية عموما . ومن أبرزها تلك الترتيبات التي تجعل الآيات موافقة لأوزان الشعر المعروفة.

ومن المعلوم أن الأوزان الشعرية العربية لم تنتظم إلا من الترتيبات المقطعية المتناسبة. ووجود مثلها في المقاطع القرآنية شاهد على وجود التناسب في مقاطعه .

غير أن تركيب المقاطع وتوزيع الأصوات في القرآن لايخضع لجمال التناسب فحسب بل يراعى فيه كذلك أن يكون مناسبا للمعاني والأغراض وقد أبرزت هذه الدراسة هذا الوجه من التناسب كذلك عن طريق عرض مجموعة من النماذج وتحليلها وقد كشف هذا التحليل عن أسرار اختيار كثير من الألفاظ والأدوات التعبيرية والتراكيب وتجنب غيرها .

والتناسب الصوتي والإيقاعي في القرآن ، ينبع إضافة إلى ماتقدم من التوازن وتناسب المقدار وتناسب الفواصل .

أما التوازن فقيمته في روعة النظم القرآني وحلاوته حقيقة شهد بها علماء الإعجاز منذ القديم .. غير أن التوازن بصورته الكاملة قليل جدا في القرآن ، والنمط الكثير فيه هو الآيات المتناسبة في مقاديرها ، وهي تلك التي تشبه القرائن المتقاربة في الوزن .

ونظرا لوضوح عنصر التوازن في النمط الأول اكتفيت بعرض أمثلة منه ولم أجد مايدعو إلى تحليلها.

أما النمط الثاني فقد تبين أن دراسة التناسب فيه يرتبط بعنصرين إيقاعيين آخرين :

الأول : هو التقسيم وأعني به تقسيم الكلام إلى وحدات متوازنة ، ويشترك فيه القرآن مع غيره .

والثاني هو الوقف ، وهو خاص بالقرآن .

فالآيات الطويلة تقسم أثناء القراءة بالوقف أقساما غالبا ما تكون متناسبة في مقاديرها وتبدو في الصورة السمعية وكأنها قرائن متقاربة في الوزن .

وقد عرضت مجموعة صالحة من النماذج ، وأوضحت قيمة أنواع الوقف ، كالوقف الكافي والتام والحسن في تقسيم الآيات تقسيما متناسبا .

وعرضت كذلك مجموعة من النماذج اخترتها من مصحف ارتكز مخططه في تجميله على مبدأ التوازن وتناسب المقدار ، فكتب بعض الآيات المتناسبة في مقاديرها بصورة تبدو معها وكأنها مقطوعات من الكلام الموزون .

وأما تناسب الفواصل ، فهو أبرز عنصر في التناسب الإيقاعي والصوتي ، وله قيمة كبيرة في القرآن الكريم . لأن الفاصلة ليست كباقي الكلمات والعناصر التي تتألف

منها الآيات ، فهي تقع في موقع خاص تؤدى فيه وظيفة معنوية وإيقاعية في آن واحد ، ولذلك يراعى في الكلمات والمقاطع التي تقع في ذلك الموقع أن تكون صالحة لأداء هذه الوظيفة المزدوجة . بأن تكون مناسبة لمعنى الآية ، متناسبة مع الفواصل الأخرى التي تكتنفها .

وفواصل القرآن تتنوع تنوعا كبيرا ، إلا أن التناسب بينها ظاهر في غالب الأحيان ، وقد خصه القرآن بعناية كبيرة ، دعت إلى تخير ألفاظ وتراكيب لغوية خاصة ـ تجمع بين الوظيفتين المعنوية والإيقاعية ، كما دعا مراعاة التناسب بين الفواصل إلى مخالفة الأصول والقواعد المقررة في كلام العرب أحيانا ، وقد عرضت في هذه الدراسة من الأمثلة ما يكفي لإبراز ظاهرة التناسب في فواصل القرآن الكريم، وقيمتها في التناسب الصوتي والإيقاعي في نظمه .

هذا بإيجاز عن المنهج الذي اعتمدت عليه والصعوبات التي صادفتها في تطبيقه ، وعلى الرغم من تلك الصعوبات فقد أمكن بفضل الله ثم بفضل التوجيهات النيرة لأستاذي الجليل الذي تحمل معي طيلة سنوات عبء هذه الدراسة وصعوباتها . الكشف عن أبرز أوجه التناسب في النظم القرآني ، وبيان قيمة هذا الأساس البلاغي الجمالي في بلاغة القرآن ، كما أمكن لي أن أخرج بجملة من الملاحظات والنتائج .

أما الملاحظات فيمكن إجمالها فيما يلي :

1 ـ إن كثيرا من الخصائص الأسلوبية التي انفرد بها القرآن الكريم لم تنل حتى حظها من الدراسة والتحليل.

2 ـ أن كل وجه من أوجه التناسب القرآني التي درستها مايزال في حاجة إلى المزيد من التحليل ، ومنها ما يمكن أن يكون موضوعا لدراسة أخرى في حجم هذه الدراسة .

3 ـ أن كل سورة من السور القرآنية تصلح أن تكون موضوعا لدراسة أسلوبية تكشف دقائق التناسب في آياتها ومعانيها وألفاظها وأصواتها وتراكيبها .

4 ـ أن كل عناصر النظم القرآني تلتقي وتتناسب وتتكامل دون أن تتعارض جزئية واحدة من ذلك البناء المحكم مع جزئية أخرى . وأن مثل هذا التكامل والتناسب لا يمكن أن تفظي إليه خبرة الإنسان المحدودة ، ولا أن تكشف جميع أسراره .

وأماالنتائج التي يجوز لهذه الدراسة أن تعتز بتحقيقها في ميدان الدراسات القرآنية فيمكن أن أجملها في الآتي :

1 ـ جمع أهم أوجه التناسب القرآني وترتيبها في دراسة منهجية منظمة ، بعد أن ظلت زمنا طويلا متفرقة أو مهملة .

2 ـ اقتراح تعميم مصطلح التناسب ليكون عنوانا لفرع من فروع علوم القرآن يشمل مباحث التناسب ، ويتناول أوجهه المعنوية واللفظية والصوتية .

3 ـ الكشف عن الكثير من أسرار النظم القرآني التي لم يكن الكشف عنها في ظل غياب الاهتمام بمبدأ التناسب.

4 ـ توجيه دراسة التناسب الصوتي في القرآن وجهة تقوم على البحث الموضوعي الذي يتتبع الطرق التي سلكها القرآن للحفاظ على التناسب في تأليف الأصوات وتجنب التنافر.

5 ـ إبراز ما يمتاز به القرآن من الجمع بين الوفاء بحق التناسب في الألفاظ والمعاني والأصوات وبين حق المعاني .

6 ـ الإيمان بأن تعميق البحث في خصائص الأسلوب القرآني وإدراك أسراره يمهد لإنهاء الخلاف التقليدي حول قضية اللفظ والمعنى التي شغلت بحوث الإعجاز زمنا طويلا وحالت دون الارتقاء بالبحث في النظم القرآني إلى مستوى النظرة الشمولية البريئة من الأهواء .

هذا ولا أدعي أنني وفيت موضوع التناسب في النظم القرآني حقه من البحث كاملا ، وإذا كنت قصرت عن بلوغ الغاية في التحليل والدراسة فعذري أن أغراض الله سبحانه وأسراره في كلامه لا يحيط بها إلا هو ، وأن عجائب القرآن لا تنقضي ....

حقيقة الإنتصار

د. ناصر بن سليمان العمر

أهمية الموضوع:

تبرز أهمية الموضوع وسببه من خلال الفهم الخاطئ لمعنى حقيقة انتصار الداعية، والخلط بين معنى انتصار الداعية وبين انتصار الدعوة، وظهور الدين، حيث نتج عن هذا الفهم وهذا الخلط عدة أمور - سلبية - أهمها:

1 - تصور كثير من الناس

أن هذا الداعية لم ينتصر ولم ينجح في دعوته لأنه لم يتمكن من تحقيق الأهداف التي يدعو إليها، ويسعى لتحقيقها، مما يؤدي إلى التشكيك في منهجه، وانصراف بعض المدعوين عنه.

2 - استعجال النتائج وتحقيق الأهداف.

من قبل كثير من الدعاة، فإن بعض الدعاة إذا بدأ في دعوته فإنه يرسم منهجا جيدا يسير من خلاله لتحقيق أهدافه، ولكن إذا مضى زمن ولم يتحقق شيء من ذلك، أو تحقق شيء يرى أنه لا يساوي الجهود المبذولة، فيقوم بتعديل منهجه السليم إلى منهج خاطئ يستعجل فيها الثمار، وذلك ناتج عن تصوره الخاطىء في فهم حقيقة ما يجب عليه، وإنه إذا لم تتحقق أهدافه فإنه لم يقم بما أوجبه الله عليه، غافلا عن الفرق بين الأمرين، أوجاهلا لذلك.

3 - الانحراف عن المنهج.

وذلك أنه لم يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، فالداعية ملزم بأن يلتزم بمنهج أهل السنة والجماعة، وهو ما كان عليه رسول الله، صلى الله عليه وسلم وصحابته.

بل هو ما ورد في الحديث الصحيح: "عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ" (1)

وهو ما نفهمه من قوله - تعالى - "(وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله). سورة الأنعام الآية : 103.

إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث التي تبين وجوب الالتزام بمنهج الكتاب والسنة.

فبعض الجماعات والدعاة، حرصا منهم على نصر الإسلام، وتصوروا منهم أن ظهور الدين وزوال الكفر والفساد مقياسا لنجاح دعوتهم، وأمام ضغط الظالمين ومساوماتهم، واستعجال الأتباع وعدم صبرهم، يسعى هؤلاء للحصول على بعض المكاسب نصرة لهذا الدين ودفاعا عنه، ولكن هذا الأمر قد يقتضي التنازل عن بعض أصول الإسلام، وهنا يأتي الداعية إلى محاولة تطبيق قاعدة المصالح والمفاسد، فينحرف عن المنهج وهو لا يدري، ويستسلم لمساومات الأعداء وألاعيبهم.

4 - اليأس والقنوط ثم الاعتزال.

طريق الدعوة طريق طويل وشاق، مليء بالعقبات والمحن والابتلاءات، وقليل من الدعاة من يجتاز هذا الطريق وهو ثابت على دعوته، ملتزم بمنهجه.

وكثير من الدعاة عندما يسير في الطريق ثم يجد أن الأعوام تمضي وهو لم يحقق شيئا مما يدعو إليه، ويحاول إعادة الكرة مرة بعد أخرى، ولا يرى أثرا مباشرا لدعوته، تبدأ عنده الشكوك والأوهام، فمرة : يتهم نفسه، وأخرى قومه، وثالثة: أتباعه ومؤيديه، ثم يصل في النهاية إلى

(1) أخرجه أحمد: 127،126/4، وأبو داود (4607) وابن ماجة (43) والترمذي (2676) وقال هذا حديث حسن صحيح.

أن هؤلاء القوم لا تنفع معهم دعوة، ولا يستجيبوا لداع أو نذير، ويقول لنفسه: كفاني ما كفانيا، وعليك بخاصة نفسك والسلام، و(ليس عليك هداهم) ـ سورة البقرة، الآية 272. يفهمها فهما خاطئا ـ و(لا يضركم من ضل إذا اهتديتم)ـ سورة المائدة، الآية 105 يضعها في غير موضعها.

وهنا ييئس من قومه، ويقنط من هداية الله لهم، ثم يعتزل الدعوة ويترك القوم وشأنهم.

ومنشأ هذه النتيجة التي وصل إليها عدم إدراكه واستيعابه لحقيقة الانتصار، وأنه قد يكون صبره على قومه مع عدم استجابتهم أعظم له أجرا، وذخرا ونصرا، مما لو آمنوا بما يدعو إليه واتبعوه.

هذه الآثار ـ وغيرها ـ التي نتجت في أغلب أحوالها عن الخلط في مفهوم الانتصار، وعدم قدرة كثير من الدعاة التفريق بين انتصار الدين وبين انتصار الداعية.

ومما سبق تتضح أهمية هذا الموضوع، وحاجة الدعاة وطلاب العلم إلى تجليته وبيانه، وبخاصة أن القرآن الكريم، قد وردت فيه آيات كثيرة، تقرر مفهوم الانتصار، ومهمه الداعية، والفرق بين المهمة وبين النتيجة والأثر.

وفي الصفحات التالية تقرير لهذه الحقيقة وتجلية لها، ومن الله نستمد العون والتأييد.

مفهوم النصر وحقيقته:

قال الله سبحانه وتعالى: (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد)سورة غافر، الآية :51.

وقال سبحانه: (وكان حقا علينا نصر المؤمنين) سورة الروم، الآية 47 وقال:(إن تنصروا الله ينصركم) سورة محمد، الآية: 7، وقال جل ذكره: (ولينصرن الله من ينصره) سورة الحج الآية 40، وقال (ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين * إنهم لهم المنصورون. وإن جندنا لهم الغالبون) سورة الصافات الآيات: 171 ـ 173.

هذه الآيات وأمثالها تدل على انتصار الداعية سواء أكان رسولا أو أحد المؤمنين، وهذا الانتصار يكون في الحياة الدنيا قبل الآخرة.

والذي علمناه من القرآن والسنة، أن من الأنبياء من قتله أعداؤه ومثلوا به، كيحيى وشعياء وأمثالهما، ومنهم من هم بقتله قومه، فكان أحسن أحواله أن يخلص منهم حتى فارقهم ناجيا بنفسه، كإبراهيم الذي هاجر إلى الشام من أرضه مفارقا لقومه، وعيسى الذي رفع إلى السماء، إذ أراد قومه قتله، ونجد من المؤمنين من يسام سوء العذاب، وفيهم من يلقى في الأخدود، وفيهم من يستشهد، وفيهم ن يعيش في كرب وشدة واضطهاد، فأين وعد الله لهم بالنصر في الحياة الدنيا؟(2) وقد طردوا أو قتلوا أو عذبوا؟

ونحن نعلم يقينا، أن وعد الله لا يتخلف أبدا، ومنشأ السؤال والإشكال أننا قصرنا النظر على نوع واحد من أنواعه، وهو النصر الظاهر وانتصار الدين، ولا يلزم أن يكون هذا هو النصر الذي وعد الله به أنبياءه ورسله وعباده المؤمنين.

والله قد وعدهم بالنصر، وهو متحقق لا شك في ذلك، ولا مرية، وذلك في الحياة الدنيا قبل الآخرة، لأن الله ـ سبحانه ـ قال: (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد). غافر، الاية: 51 ومن أصدق من الله قيلا.

وتجلية لهذه القضية، وبيانا لهذا الجانب لابد من إيضاح معنى النصر، وأنه أشمل مما يتبادر إلى أذهاننا، ويسبق إلى أفهامنا إن النصر له وجوه عدة، وصور متنوعة أهمها ما يلي:

1 ـ أن النصر قد يكون بالغلبة المباشرة والقهر للأعداء على أيدي هؤلاء الأنبياء والرسل، كما حصل لداود وسليمان، عليهما السلام، (وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة). سورة البقرة، الآية: 251. (وكلا اتينا

(2) انظر تفسير الطبري 24 / 74 وفي ظلال القرآن 3085/4

حكما وعلما) سورة الأنبياء، الآية : 79. (على ملك سليمان) سورة البقرة، الآية : 102 (قال رب اغفر لي وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي) سورة ص الآية:35.

وكذلك موسى، عليه السلام، نصره الله على فرعون وقومه، وأظهر الدين في حياته، (ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون). سورة، الأعراف، 137، (فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون) البقرة، الآية: 50.

ونبينا محمد، صلى الله عليه وسلم، نصره الله نصرا مؤزرا، وأهلك أعداءه في بدر، وما بعدها حتى ظهر دين الله، وقامت دوله الإسلام، (إنا فتحنا لك فتحا مبينا). سورة الفتح، الآية 1. (إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا) سورة النصر، الآيتان: 1 ـ 2.

وهذا النوع من الانتصار هو النصر الظاهر، وهو أول ما يتبادر إلى الأذهان عند إطلاق كلمة النصر، للأسباب التالية:

(أ) ـ لأنه نصر ظاهر يراه الناس ويحسون به.

(ب) ـ أنه هو الانتصار الذي يجمع بين انتصار الدين وظهوره وانتصار الداعية.

(ج) ـ أنه محبب إلى النفوس، وهو النصر العاجل، «والنفس مولعة بحب العاجل» ولذلك قال ـ سبحانه ـ : (وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب). سورة، الصف: 13.

2 ـ أن النصر قد يكون بإهلاك هؤلاء المكذبين

ونجاة الأنبياء والمرسلين، ومن آمن معهم، كما حدث لنوح، عليه السلام، حيث نجاه الله وأهلك قومه، (فدعا ربه أني مغلوب فانتصر * ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر * وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر * وحملناه على ذات ألواح ودسر * تجري بأعيننا جزاء لمن كان كفر). سورة القمر، الآيات : 10 ـ 11 ـ 12 ـ 13 ـ 14.

وكذلك قوم هود، (فأنجيناه والذين معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين) سورة الأعراف. الآية : 72.

وقوم شعيب، (فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم) سورة الشعراء› الآية 189. إن أخذ المجرمين بالعذاب الأليم نصر عظيم للداعية، وكبت للمكذبين والمرجفين، والله يمهل ولا يهمل أبدا :

(فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) سورة العنكبوت الآية 40.

3 ـ قد يكون الانتصار بانتقام الله

من أعدائهم، ومكذبيهم، بعد وفاة هؤلاء الأنبياء والرسل، كما حدث مع من قتل يحيى، ـ عليه السلام ـ وشعياء، ومن حاول قتل عيسى، عليه السلام قال الإمام الطبري في تفسير الآية :

(إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا)، سورة غافر، الآية : 51 «إما بإعلائنا لهم على من كذبنا ... أو بانتقامنا في الحياة الدنيا من مكذبيهم بعد وفاة رسولنا من بعد مهلكهم، كالذي فعلنا من نصرتنا شعياء بعد مهلكه، بتسليطنا على قتله من سلطنا حتى انتصرنا بهم من قتلته، وكفعلنا بقتلته يحيى من تسليطنا بختنصر عليهم حتى انتصرنا به من قتلته له، وكانتصارنا لعيسى من مريدي قتله بالروم حتى أهلكناهم بهم " (3) وهذا يدخل تحت قوله ـ تعالى ـ : (ولو يشاء الله لا نتصر منهم) سورة محمد، الآية :4 ، أي : لا نتقم.

(يتبع في العدد القادم)

(تفسير الطبري 74/24

منشورات
مركز دراسات المستقبل الإسلامي (1)

التجربة السياسية للحركة الإسلامية المعاصرة

دروس الماضي وأفاق المستقبل

الدكتور محمد فتحي عثمان

دار المستقبل

طبع بأمر من صاحب الجلالة أمير المؤمنين الحسن الثاني نصره الله

المملكة المغربية
وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

فقه ابن عمر في المعاملات

إعداد
محمد سلامة
أستاذ بكلية الشريعة بفاس

1409هـ - 1989م

حقيقة الإنتصار

« وكان حقا علينا نصر المؤمنين »

د. ناصر بن سليمان العمر

دار الوطن للنشر

منشورات
مركز دراسات المستقبل الإسلامي (2)

المقتضيات المنهجية لتطبيق الشريعة

في الواقع الإسلامي الراهن

الدكتور عبد المجيد النجار

دار المستقبل